حقيقة الليبرالية
وموقف الإسلام منها

سليمان بن صالح الخراشي

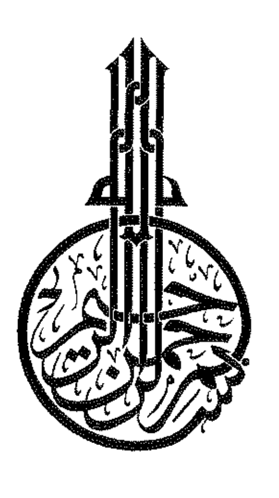

مقدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من نعم الله على هذه البلاد ـ المملكة العربية السعودية ـ أن جعلها مهد الإسلام خاتم الأديان، وموطن خاتم الرسل ﷺ، وخصها بخصائص كثيرة تميزها عن غيرها[1]؛ فهي بارقة الأمل للمسلمين في نشر عقيدة التوحيد؛ لأنها موئل جماعة المسلمين الأوَل، وهي السور الحافظ حول الحرمين الشريفين. قال الشيخ بكر أبوزيد ـ سلمه الله ـ: «ومن خصائص هذه الجزيرة المباركة أن الإسلام حين يُضطهد في دياره خارجها، فإنه ينحاز إلى هذه الجزيرة، ويأوي إليها، فيجد كرم الوفادة بعد الغربة، وطول المحنة. وفي ذلك جاء حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى**

---

(١) يُنظر كتاب الشيخ بكر أبوزيد – سلمه الله – «خصائص جزيرة العرب»؛ لمعرفتها بالتفصيل.

جحرها»[١]، فانظر كيف ربط النبي ﷺ بين غربة الإسلام، ثم احتضان هذه الجزيرة له؛ انتشالا من غربته»[٢].

«وفي أعقاب خاتمة الرسالات لنبينا ورسولنا محمد بن عبدالله المطلبي الهاشمي ﷺ، كانت دعوة التجديد على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ، الذي نصب راية الدعوة إلى التوحيد، وإحياء ما اندرس من معالم الدين، التي لايزال ينعم بها من شاء الله من عباده في هذه الجزيرة وخارجها. وفي الحاضر: هذه اليقظة الإسلامية التي نشاهدها اليوم، فإن هذه الدعوة المباركة تمُثل الزاد النقي لهذه اليقظة على منهاج النبوة، سليمة من الأهواء والأوهام والانحرافات، مبرأة من مظاهر الشرك وتبعات الغلو. وهكذا يمتد رواقها في العالم الإسلامي؛ لأنها تمُثل الإسلام تمامًا، كما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ. وفي المستقبل على مشارف الساعة، في أيام الفتنة الكبرى، فتنة المسيح الدجال؛ فإن الرجل المؤمن الذي تتحطم على يديه هذه الفتنة هو من أهل هذه الجزيرة، كما في حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ المتفق عليه.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦).

(٢) خصائص جزيرة العرب، ص ٣٧.

وفي هذا إشارة وإيماء إلى أن كلّ فتنة عمياء صماء تجتاح بلاد الإسلام، تتحطم على صخرة هذه الجزيرة، وإذا كانت فتنة الدجال هي أعظم فتنة من لدن نوح عليه السلام إلى قيام الساعة، ويكون تحطيمها على يد رجل مؤمن من هذه الجزيرة، فإن كل فتنة دونها ستتحطم على يد أبناء هذه الجزيرة بإذن الله تعالى»[١].

ومصداق هذا ما رأيناه في زماننا المعاصر من تحطم كثير من الأفكار والمذاهب الفكرية التي تجتاح بلاد الإسلام على أرضها؛ كالشيوعية والماركسية والبعثية والقومية والحداثة والعلمنة، ولله الحمد والمنة، وما الدعوة الليبرالية عنها ببعيد؛ لأن هذه البلاد قدَرها هو الإسلام، لا ترتضي بديلا عنه ـ مهما جنح من جنح من أبنائها ـ .

«لذلك فإن المتعين على أهل هذه الجزيرة، وعلى من بسط الله يده عليهم وعليها: المحافظة على هذه الميزات والخصائص الشرعية؛ ليظهر تميزها، وتبقى الجزيرة وأهلها مصدر الإشعاع لنور الإسلام على العالم. وليُعلم أنه كلما قوي هذا النور، امتد هذا الإشعاع، وكلما ضعف وتضاءل في

---

(١) السابق، ص ٧١ – ٧٢.

هذه الجزيرة وأهلها، تقاصر»[١].

وقد أدرك هذا ولاة أمرها ـ وفقهم الله ـ منذ عهد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ، فكانوا يؤكدون عليه بين حين وآخر، فرحًا بفضل الله ونعمته التي حباهم بها، معلنين أن هذه البلاد المسلمة ليست بحاجة إلى أفكار وافدة ـ يمينًا كانت أو شمالا ـ؛ لأن الله أبدلها بشريعة الإسلام، التي تجمع بين الدين والدنيا، وتحث على إعداد القوة المادية، والترقي في الأمور الدنيوية النافعة، دون حاجة إلى أن تتلوث بشيء من تلك الأفكار. فأمور الدنيا قد بذلها الله لجميع البشر ـ مسلمهم وكافرهم ـ، من بذل أسبابها حصل عليها. قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]. وقد رأينا دولا كثيرة بثقافات متعددة قد حصلت عليها لما بذلت أسبابها، بغض النظر عن دينها أو هويتها. فمن يربط بين التحضر والتقدم وبين تلك الأفكار الوافدة ـ ليبرالية كانت أو غيرها ـ فإنما يغالط الحقائق، ويُلبس على الناس.

---

(١) السابق، ص ٧٧.

وهذا الأمر ـ وهو عدم تعارض شريعة الإسلام مع العلوم النافعة ـ كان حاضرًا في ذهن الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ، يردده بين وقت وآخر. فمن أقواله الذهبية في بيانه؛ قوله: «أما التمدنُ الذي فيه حفظُ ديننا وأعراضنا وشرفنا؛ فمرحبًا به وأهلا، وأما التمدنُ الذي يؤذينا في ديننا وأعراضنا؛ فوالله لن نرضخ له، ولن نعمل به، ولو قُطّعتْ منّا الرقاب»[1]. وعلى هذا سار أبناؤه من بعده.

ولقد اعترف بهذا أحد غلاة الليبراليين، الذين أنطقهم الله بالحق، حيث قال: «إن مشاكل الاقتصاد والفكر والثقافة والسياسة التي تعاني منها دول وشعوب العالم الثالث، التي تبحث عن النماذج والأشكال المستقبلية وتحتار في مسألة الاختيار ليست موجودة في المملكة العربية السعودية، لماذا..!؟ لأن الإسلام والشريعة الإسلامية قد توليا حل كل هذه المشاكل ووصفت الحلول منذ ما يزيد عن ألف سنة، لكل المشاكل التي عانى منها العالم الثالث، ويحاول كما قلنا أن يبحث له عن خيارات، علما بأن الخيار الإسلامي

(١) «أثر الدعوة السلفية في توحيد المملكة العربية السعودية»، للدكتور حمود الرحيلي، ص ٦٧.

جاهز وكامل، وهذا ما مكن المملكة العربية السعودية من أن تقفز خلال الخمس عشرة سنة الماضية قفزة كانت ستأخذ من أي شعب آخر لم يتبن الخيار الإسلامي عشرات السنين. إن ما يطلق عليه اقتصاديا وتنمويا (حرق المراحل) لم يتم في المملكة العربية السعودية؛ لأن هذا البلد يملك من الإمكانات المادية ما أهله لحرق المراحل، ولكن لسبب بسيط وجوهري في نفس الوقت وهو أن النهج الإسلامي في الاقتصاد والفكر والاجتماع والسياسة الذي انتهجته المملكة قد وفر عليها وقتا وجهدًا كبيرين، كان المفروض أن يُستنزفا في حل المشاكل الاجتماعية والفكرية والسياسية نتيجة لتبنيها نموذجا وضعيًا مُعرضًا كما هو معروف للخطأ والصواب. أما وقد انتهجت المملكة النهج والأنموذج الإسلامي السماوي المطلق المنزه عن الخطأ؛ فقد كفاها هذا النموذج شر الخطأ وشر التجارب المريرة والإحباطات الفكرية والاجتماعية التي أصيبت بها كافة النماذج الوضعية في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب»[١].

---

(١) «سعودية الغد الممكن»، شاكر النابلسي !، وهو – حاليًا – أحد الليبراليين الجدد – كما سيأتي –، ويكتب في جريدة «الوطن» (السعودية)!

وقد أحببت أن ألقي الضوء على آخر الأفكار الوافدة على أهل هذه البلاد؛ وهي «الليبرالية»، التي فُتن بها بعض شبابها، جهلا منهم بخطورتها على دينهم الذي يتعارض معها ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ. محذرًا، وناصحًا، وكاشفًا عن مخالفتها الصريحة لأحكام الشريعة، بل مناقضتها لها، من خلال عرض مختصر[١]، يجلي حقيقتها لأبناء هذا الوطن المسلم، راغبًا من الله أن تساهم هذه الرسالة في تحطيمها، سائلهُ أن يقينا الفتن، ما ظهر منها وما بطن،، وأن يُثبتنا على دينه القويم إلى أن نلقاه، غير مفرطين أو شاكين. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(١) اختصرته وهذبته من رسالة «الليبرالية وموقف الإسلام منها»؛ للأخ الدكتور عبدالرحيم بن صمايل السلمي – حفظه الله –، التي حاز بها على شهادة الدكتوراة في جامعة أم القرى قسم العقيدة، عام ١٤٢٧هـ، بتقدير امتياز. فأنصح القارئ باقتنائها.

مفهوم مصطلح الليبرالية

الليبرالية مصطلح أجنبي معرّب مأخوذ من (Liberalism) في الإنجليزية، و(Liberalisme) في الفرنسية، وهي تعني «التحررية»، ويعود اشتقاقها إلى (Liberty) في الإنجليزية أو (Liberte) في الفرنسية، ومعناها الحرية[١].

وهي مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام استقلال الأفراد، ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التفكير، والتعبير، والملكية الخاصة، والحرية الشخصية وغيرها.

ولهذا يسعى هذا المذهب إلى وضع القيود على السلطة، وتقليل دورها، وإبعاد الحكومة عن السوق، وتوسيع الحريات المدنية.

ويقوم هذا المذهب على أساس علماني يعظم الإنسان، ويرى أنه مستقل بذاته في إدراك احتياجاته، تقول الموسوعة الأمريكية الأكاديمية: «إن النظام الليبرالي الجديد (الذي

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي ١/ ٤٦١.

ارتسم في فكر عصر التنوير) بدأ يضع الإنسان بدلاً من الإله في وسط الأشياء، فالناس بعقولهم المفكرة يمكنهم أن يفهموا كل شيء، ويمكنهم أن يطوروا أنفسهم ومجتمعاتهم عبر فعل نظامي وعقلاني»(١).

ويقول جميل صليبا: «ومذهب الحرية (Liberalism) أيضاً مذهب سياسي فلسفي يقرر أن وحدة الدين ليست ضرورية للتنظيم الاجتماعي الصالح، وأن القانون يجب أن يكفل حرية الرأي والاعتقاد»(٢).

وقد أطلق مصطلح «الليبرالية» على عدة أمور، من أهمها :

ـ حركة فكرية ضمن البروتستانتية المعاصرة، وقد أطلق على هذه الحركة اسم «الليبرالية» لأنها تعتمد على حرية التفكير، وانتهاج الفكر العقلاني في التعامل مع النصوص الدينيّة. يقول «برتراند رسل»(٣): «بدأ يظهر في أعقاب عصر

---

(١) Acodemic American Encyclopedia (libenalsm).

(٢) المعجم الفلسفي ١ / ٤٦٥.

(٣) برتراند راسل (Bertrand Russell) رياضي وفيلسوف وداعية سلام انجليزي، ولد سنة ١٨٧٢م، يعتبر هو و«الفرد هوايتهد» واضعي علم المنطق الرمزي أو الرياضي، من آثاره: «الدين والعلم» و«تاريخ الفلسفة الغربية» و«السلطة والفرد» توفى سنة ١٩٧٠م. معجم أعلام المورد ص / ٢٠٢.

الإصلاح الديني موقف جديد إزاء السياسة والفلسفة في شمال أوروبا، وقد ظهر هذا الموقف بوصفه رد فعل على فترة الحروب الدينيّة والخضوع لروما مركزاً في إنجلترا وهولندا ... ويطلق على هذا الموقف الجديد تجاه مشكلات الميدان الثقافي والاجتماعي اسم الليبرالية، وهي تسمية أقرب إلى الغموض، يستطيع المرء أن يدرك في ثناياها عدداً من السمات المميزة، فقد كانت الليبرالية أولاً بروتستانتيّة في المحل الأول، ولكن ليس على الطريقة الكالفينية الضيقة، والواقع أنها أقرب بكثير إلى أن تكون تطوراً للفكرة البروتستانتيّة القائلة: إن على كل فرد أن يسوي أموره مع الله بطريقته الخاصة، هذا فضلاً عن أن التعصب والتزمت يضر بالأعمال الاقتصادية»[١] .

والبروتستانتيّة في حد ذاتها اختصرت الطريق أمام الليبرالية العقلانية المحضة، وهذه الحركة الفكرية داخلها أطلق عليها اسم الليبرالية مع أنها لا زالت حركة دينيّة لأنها فسّرت الدين بطريقة معيّنة جعلته متوافقاً مع الليبرالية

---

(١) حكمة الغرب ٢/ ١٠٣-١٠٤ .

العلمانية[١].

يقول منير البعلبكي: «كما يطلق لفظ «الليبرالية» كذلك على حركة في البروتستانتيّة المعاصرة تؤكد على الحرية العقليّة، وعلى مضمون النصرانية الروحي والأخلاقي، وقد كان من آثار هذه الحركة انتهاج الطريقة التاريخية في تفسير الأناجيل»[٢].

فقد نشأت الليبرالية كردة فعل غير واعية بذاتها ضد مظالم الكنيسة والإقطاع، ثم تشكلت في كل بلد بصورة خاصة، وكانت وراء الثورات الكبرى في العالم الغربي (الثورة الإنجليزية، والأمريكية، والفرنسية)، ولكن نقاط الالتقاء لم تكن واضحة بدرجة كافية، وهذا يتبين من تعدد اتجاهاتها وتياراتها[٣].

يقول «دونالد سترومبرج»: «والحق أن كلمة الليبرالية

---

(١) هذه الحركة هي المعروف باسم (العصرانية)، وهي موجودة في كل الأديان السماوية وهي تعتمد على إلغاء مدلول النص الديني وادعاء تاريخيته ليتوافق مع العصر، ولعل النص المنقول عن البعلبكي يبيّن حقيقة هذه الحركة.

(٢) المورد ٦ / ١١٤.

(٣) انظر حول نشأة الليبرالية وتطورها: ص / ٤٩ من هذا البحث، وانظر حول اتجاهات الليبرالية ص / ١١٢ من هذا البحث.

مصطلح عريض وغامض، شأنه في ذلك شأن مصطلح الرومانسية، ولا يزال حتى يومنا هذا على حالة من الغموض والإبهام»(١).

وفي الموسوعة الشاملة: «تعتبر الليبرالية مصطلحاً غامضاً لأن معناها وتأكيداتها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين»(٢).

وتقول الموسوعة البريطانية :«ونادراً ما توجد حركة ليبرالية لم يصبها الغموض، بل إن بعضها تنهار بسببه»(٣).

وإذا ذكر اسم «الليبرالية» فإنه ـ كما يقول رسل ـ«تسمية أقرب إلى الغموض، يستطيع المرء أن يدرك في ثناياها عدداً من السمات المتميزة»(٤).

ومن أهم أسباب غموض مصطلح الليبرالية: غموض مبدأ الحرية:

حيث يعتمد مفهوم الليبرالية على الحرية اعتماداً تاماً، ولا

---

(١) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص / ٣٣٧.

(٢) The World Book Encyclopedia (liberalism)

(٣) Encyclopedia Britannicac (liber alism).

(٤) حكمة الغرب ٢ / ١٠٣.

يمكن إخراج «الحرية» من المفهوم الليبرالي عند أي اتجاه يعتبر نفسه ليبرالياً .

ولكن مفهوم الحرية مع سهولته، وكثرة كلام الناس فيه، لا يمكن تحديده وضبطه، لأن أصحاب الأفكار المختلفة في الحرية الليبرالية يعتمد كل واحد منهم على «الحرية» في الوصول لفكرته .

تقول الموسوعة البريطانية: «وحيث أن كلمة Liberty «الحرية» هي كلمة يكتنفها الغموض فكذلك هو الحال مع كلمة ليبرالي. فالليبرالي قد يؤمن بأن الحرية مسألة خاصة بالفرد دون غيره، وأن دور الدولة يجب أن يكون محدداً، أو قد يؤمن بأن الحرية هي شأن خاص بالدولة، وأن الدولة باستطاعتها أو يمكن استخدامها بمثابة أداة لتعزيز الحرية»[١].

وقد خرجت أفكار مضادة لليبرالية من رحم الحرية التي تعتبر المكون الأساسي لليبرالية مثل الفاشية، والنازية، والشيوعية، فكل واحدة من هذه المذاهب تنادي بالحرية،

---

(١) Encyclopedia Britannica (liberalism)

وتعتبر نفسها الممثل الشرعي لعصر التنوير، وتتهم غيرها بأنه ضد الحرية.

وقد حصل التنازع بين اتجاهات الليبرالية في تكييف «الحرية»، والبرامج المحققة لها، ومن هذا المنطلق جاء المفهوم السلبي، والمفهوم الإيجابي للحرية.

* * *

الأسس الفكرية لليبرالية

تقوم الليبرالية على أسس فكرية هي القدر المشترك بين سائر اتجاهاتها وتياراتها المختلفة، ولا يمكن اعتبار أي فرد ليبرالياً وهو لا يقر بهذه الأسس ولا يعترف بها، لأنها هي الأجزاء المكونة لهذا المذهب والمميزة له عن غيره.

وتنقسم هذه الأسس المكونة لليبرالية إلى قسمين:

ذاتية مميزة لليبرالية عن غيرها من المذاهب الفكرية الغربية التي ظهرت في عصر النهضة والتنوير، وهي أساسان هما: «الحرية»، و«الفردية».

مشتركة بين الليبرالية وغيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهي أساس واحد هو: «العقلانية»، فكل المذاهب التي ظهرت في أوروبا في العصر الحديث خرجت من الفكر العقلاني الذي يعتقد باستقلال العقل في إدراك المصالح الإنسانية في كل أمر دون الحاجة إلى الدين.

فالليبرالية حقيقة مركبة تركيباً تاماً من «الحرية الفردية العقلانية»، ولكن هذه الأسس المكونة لحقيقتها مجملة،

تعددت تصورات الليبراليين في تفصيلاتها الفكرية، فضلاً عن آثارها العملية، والطريقة التطبيقية أثناء العمل السياسي أو الاقتصادي .

وهذه الأسس لا تعدو أن تكون تقريباً للفكر الليبرالي بصورة عامة، لأن الإشكالية في هذا الفكر أنه يقبل التلوّن وتعدد الصور، فهو قائم على عدم الجزم والقطع، وهذه هي مهمة الفيلسوف الليبرالي في حَل المشكلات، يقول «رسل»: «إن الفيلسوف الليبرالي لا يقول هذا حق، بل يقول في مثل هذه الظروف يبدو لي أن هذا الرأي أصح من غيره»[(١)]، فلا يوجد في الفكر الليبرالي حقيقة نهائية، بل تختلف باختلاف الظروف والأحوال، فالحقيقة تتغير من وقت لآخر، ومن تجربة لأخرى، وهذا ما جعل «الليبرالية» متعددة الأشكال والاتجاهات .

الأساس الأول: الحرية :

التي تعني أن الفرد حُرّ في أفعاله، ومستقل في تصرفاته دون أي تدخل من الدولة أو غيرها، فوظيفة الدولة حماية

---

(١) نقلاً عن: الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس ص / ٩٣ .

هذه الحرية، وتوسيعها، وتعزيز الحقوق، واستقلال السلطات، وأن يعطى الأفراد أكبر قدر من الضمانات في مواجهة التعسّف والظلم الاجتماعي .

وهذه الحرية المدنية هي التي اعتنى بها الفكر الليبرالي باعتبارها موضوعاً سياسياً يتعلق بالعلاقة بين الفرد والدولة، وعلاقة الفرد بالآخرين، والحرية بهذا الاعتبار ذات طابع عملي واقعي .

والحرية المدنية في الفكر الليبرالي مقيّدة بالقانون، لأن القانون ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري، فالإنسان كائن اجتماعي بفطرته، وقيام المجتمع وتنظيم روابطه مقرون بوجود القانون، ولكن صورة القانون تختلف من منهج لآخر ضمن الفكر الليبرالي، وبهذا نعلم أن القوانين لا تمثل عند الليبراليين إكراهاً أو استبداداً مفروضاً من خارج الفرد تقيد حريته التي هي حق فطري للإنسان، فالقانون مقبول من حيث المبدأ لدى الليبراليين، ولكنهم يختلفون في آحاد القوانين ومنهجيّة تشريعها من حيث تحقيق الحرية أو كبتها[١] .

---

(١) انظر: الطريق إلى العبودية ص/ ٨٦

الأساس الثاني: الفردية:

«الفردية هي السمة الأساسيّة الأولى لعصر النهضة، فهاهو عصر النهضة يأتي كرد فعلٍ لفكر القرون الوسطى، ويتحرر الفرد من الانضباط الكاثوليكي الطويل»[١].

وقد ارتبطت الحرية بالفرديّة ارتباطاً وثيقاً، فأصبحت الفرديّة تعني استقلال الفرد وحريته.

وقد جاءت هذه الفرديّة بمفهومين مختلفين:

أحدهما: الفرديّة بمعنى الأنانية وحبّ الذات، وهذا المعنى هو الذي غلب على الفكر الغربي منذ عصر النهضة وإلى القرن العشرين، وهذا هو الاتجاه التقليدي في الأدبيات الليبرالية.

والثاني: الفرديّة بمعنى استقلال الفرد من خلال العمل المتواصل والاعتماد على النفس، وهذا هو الاتجاه البراجماتي، وهو مفهوم حديث للفردية.

الأساس الثالث: العقلانية:

تعني العقلانية استقلال العقل البشري بإدراك المصالح

---

(١) تاريخ الفكر السياسي ١ / ٣٥٨.

والمنافع دون الحاجة إلى قوى خارجيّة، وقد تم استقلاله نتيجة تحريره من الاعتماد على السلطة اللاهوتيّة الطاغية.

ونلاحظ أن الاعتماد على العقل وتحييد الدين جاء بصورة متدرجة، ولكنه استحكم في عصر التنوير، وزاد ترسيخه كمصدر وحيد للمعرفة في القرن التاسع عشر الذي هو قمة الهرم الليبرالي. وقد أصبح الاعتماد على العقل المجرد وإقصاء الدين والقيم والأخلاق سمة من أبرز سمات الفكر الأوروبي المعاصر.

وتبدو العقلانية في الفكر الليبرالي من خلال ما يلي:

أولاً: أن الحقوق الأساسيّة للفرد تستند إلى القانون الطبيعي، وهو قانون مادي يرى فيه الليبراليون الأساس الفلسفي لهذه الحقوق، فالناس في حالة الطبيعة الأولى لهم حقوق طبيعيّة كحق الحرية الشخصيّة، وحق الملكية الخاصة وغيرها.

وقد ربط الليبراليون السياسة والاقتصاد بهذا الأساس الفلسفي، فالدولة تتكوّن «بالعقد الاجتماعي» المنظّم لهذه الحقوق والمحافظ عليها، والحرية الملكيّة الفردية تقوم الطبيعة بجعلها لمصلحة المجتمع مع أن الفرد لم يقصد

ذلك، ولا يعرف كيفيّة حصوله .

والمقصود أن الحريات هي حقوق مستندها الشرعي الطبيعة وليس أمراً خارجياً عن الطبيعة المادية المشاهدة، وطريق معرفة الطبيعة العقل وأدواته كالحسّ والتجربة .

ثانياً: أن الدولة محايدة فيما يتعلق بالاعتقاد الديني، لأن الحرية تقتضي عدم القطع واليقين، لأنه لا يمكن الوصول للحقيقة إلاّ بواسطة العقل من خلال التجربة، فالإنسان قبل التجربة يجهل الكليات العامة. والمطلقات المجردة، وهذا ما يجعله غير قادر على القطع، ويسمى هذا المبدأ «مبدأ التسامح»[١]، وحقيقته إلغاء للالتزام الديني، لأنه أعطى الإنسان الحق في اعتقاد ما شاء وإعلانه، وعدم تكفيره ولو كان إلحاداً، ويجب على الدولة أن تكفل هذا الحق لمواطنيها، لأن الدولة تكوّنت للمحافظة على الحقوق الطبيعيّة للأفراد، وهذا يقتضي أن تكون محايدة من كافة الأديان والمذاهب[٢].

ولاشك أن الأساس الذي بني عليه ما تقدم هو العقل

---

(١) قرر هذه المفاهيم جون لوك في كتابه: «رسالة في التسامح» .

(٢) انظر: مشكلة الحرية ص / ٢٣٣ .

المجرد، وهو عقل مادي لا يؤمن بغير المحسوسات، ويرى الدين مبني بناء غير علمي فلا يصح جعله مصدراً للمعرفة.

ثالثاً: أنّ القانون الذي يضبط الحرية من الانفلات ـ عند كل الاتجاهات الليبرالية ـ هو قانون وضعي يعتمد على العقل المجرد في التشريع، فالمصدر الوثيق في القانون، وفي المجال الخاص للفرد هو العقلانية.

* * *

عوامل نشأة الليبرالية في الغرب

أوروبا بين الانحراف الديني والاستبداد السياسي :

أولاً : الانحراف الديني:

ظهرت دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ في المستعمرات الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وهي إمبراطورية وثنية لا تؤمن إلا بالأمور الحسية، وشديدة الاعتداد بالشهوات الجسدية. وتعتبر الإنسان سيد المخلوقات[1].

وقد قابل الرومان أتباع الدين الجديد بالاضطهاد والتعذيب وساندهم في ذلك اليهود الحاقدون على المسيح ـ عليه السلام ـ والحواريين، مما اضطرهم إلى الهروب والاختفاء بدينهم.

في هذه الأجواء القاسية عاشت النصرانية، وفي مناخ الاضطهاد والمطاردة والقتل والتعذيب تربى أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ وقد ظن الرومان أنهم قضوا على هذا الدين بصلب نبيهم وقتله.

---

(١) انظر: التاريخ اليوناني ص/ ١٩٥-١٩٦، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص / ١٥٧ – ١٥٨.

وقد قام اليهود بدور خطير في القضاء على النصرانية، وهو التحريف والتبديل من الداخل

حيث دخل في النصرانية رجل يهودي يقال له: «شاول»، وهو يهودي عُرف باضطهاد النصارى في أول أمره[١]، ثم تحول إلى النصرانية بصورة مفاجئة، وسمى نفسه (بولس).

يقول المؤرخ الانجليزي «ويلز»: «وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من النقاد العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية[٢]، وهو «شاول الطرطوسي»، أو «بولس»، والراجح أنه كان يهودي المولد وان كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك، ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود، بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية»[٣].

ويقول أيضاً: «وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينية، وبأساليب الرواقين كان صاحب نظرية

---

(١) جاء في أعمال الرسل: (أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب) أعمال الرسل ـ الإصحاح (٩).

(٢) يريد المسيحية الرسمية بعد اعتناق الدولة الرمانية لها.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية ٣ / ٧٠٥.

دينية ومعلماً يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل»[١] وهو أول من ابتدع في شأن المسيح اللاهوت والناسوت، وكانت النصارى قبله كلمتهم واحدة أنه عبد رسول مخلوق مصنوع مربوب لا يختلف فيه اثنان منهم، فقال بولس هذا ـ وهو أول من أفسد دين النصارى ـ: إن سيدنا المسيح خُلق من اللاهوت إنساناً كواحد منا في جوهره، وأن ابتدأ الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي حصبته النعمة الإلهية فخلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله[٢].

وقد كان هذا التحريف هو البداية لدخول كثير من عناصر الوثنيات في الديانة النصرانية[٣].

وعند التأمل في عقائد النصارى بعد التحريف نجد التشابه الكبير مع عقائد فلسفية كانت موجودة في حوض البحر المتوسط كالعقيدة المترائية، والأفلاطونية الحديثة،

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٧٠٥.

(٢) هداية الحيارى ص/ ٢٩٢.

(٣) انظر: الأصول الوثنية للمسيحية ص ٣١.

والفلسفة الرواقية وغيرها[١].

وقد اعتنق الإمبراطور الروماني «قسطنطين» النصرانية في عام ٣٢٥م بعد حصول التحريف للإنجيل، الذي أصبح أشبه ما يكون بالقصص والسير والأخبار، وبعد انحراف العقيدة النصرانية من التوحيد إلى التثليث، وأن الإله هو الأب، والإبن، وروح القدس، وبدع أخرى لم يأت بها المسيح ـ عليه السلام ـ .

ثانياً: الاستبداد السياسي:

النظام السياسي الذي كان يحكم المجتمع الأوروبي في العصر الوسيط هو «نظام الإقطاع» وهو نظام جاهلي مستبد، وصل إلى ذروة الطغيان والعدوان على حرية الإنسان. وقد تكوّن هذا النظام بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، ودخول البرابرة إلى روما، وانهيار الإمبراطورية الغربية وتفكك الدول المرتبطة بها وانقسامها[٢].

وبرز الإقطاع واضحاً في غرب أوروبا منذ القرن التاسع

---

(١) انظر في بيان ذلك: العلمانية ص / ٢٩ وما بعدها .

(٢) انظر: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي ص / ١٣ .

الميلادي، وذلك بازدياد نفوذ الملاّك، وزوال الحكومات المركزية، وبهذا تكون الصورة السياسية للقارة الأوروبية الغربية هي وجود ملوك ليس لهم سلطة فعلية، وانقسام الدولة الواحدة إلى مجموعة إقطاعيات عليها «سادة» أو «نبلاء»[(١)] يتحكمون في الفلاحين تحكماً تاماً[(٢)].

ورقيق الأرض في النظام الإقطاعي وإن لم يكن عبداً بالمفهوم المعروف إلا أنه يأخذ حكمه لأنه بدون حقوق مدنية على سيده.

وقد كان الإقطاعيون على ثلاثة أنواع: الكنيسة، والسادة، والملوك، وقد مارسوا أنواعاً من الاستبداد والظلم ضد عموم الناس وهم «الفلاحون».

إذًا كان للانحراف الديني والاستبداد السياسي دور رئيسي في وجود الفكر الليبرالي، لأنه استعبد المجتمع الأوروبي، وكبت حرية أفراده إلى درجة العبودية التامة، وهذا الطغيان على الحرية ولّد ردت فعل معاكسة، وهو أمر طبيعي، وسنة

---

(١) اختلفت ألقاب السادة باختلاف درجاتهم ونوعية إقطاعياتهم فمنهم: الدوق، والمركيز، والكونت، والفيكونت وغيرهم. انظر: المصدر السابق ص/ ١٤ .

(٢) انظر: المصدر السابق ص / ١٣ .

كونية جارية.

وقد كان هذا الفكر في بدايته يريد التخلص من القيود الدينية والسياسية والاقتصادية إلى فضاء الحرية الكبرى دون نظرة واعية، وتصور واضح لكيفية بناء المجتمع الجديد.

وهذا ما يفسّر لنا التعددية الفكرية في فهم «الليبرالية» وكيفية تطبيقها في الواقع، فقد كان الخروج من نير الاستعباد هدفاً في ذاته، والاتجاه نحو التحرر اتجاه مجمل دون تصور تفصيلي، لأنه لم ينبت في جو هادئ، ونتيجة تفكير واع، بل نبت في مناخ صاخب، وظروف صعبة، فقد وجد الأوروبيون أنفسهم بحاجة إلى دين جديد، وتصوّر جديد للفكر السياسي والاقتصادي، فكان التحرر وسيلتهم في بناء منهج معرفي كامل.

التحولات الفكرية في أوربا نحو الليبرالية:

بدأت التحولات الفكرية في أوروبا في عصر النهضة، وهو العصر الممتد من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر الميلادي، وقد كانت هذه التحولات متدرجة وكانت البداية الفعلية في إيطاليا من خلال الحركة الأدبية التي قامت بإحياء الآداب الإغريقية دون أي تعرض للأوضاع

الدينية والاجتماعية، ثم جاءت حركة الإصلاح الديني التي هزت المجتمع الغربي بقوة، وكان دورها في الاتجاه نحو الليبرالية أقوى من الحركة الأدبية، وهذه الحركة تجاوزت نصف الطريق نحو التحرر، وكان من آثارها نمو الفكر التجريبي الذي أوصل العلماء الطبيعيين إلى النظريات الكونية الجديدة على المجتمع الغربي، ومن خلال هذه المعالم تمت التحولات الفكرية، وكانت قمة هذه التحولات الثورات التحريرية وخاصة الثورة الفرنسية، لأنها غيّرت وجه القارة الأوروبية .

وأبرز المعالم التي كان لها دور بارز في الاتجاه نحو الليبرالية :

أولاً: الحركة الأدبية ذات النزعة الإنسانية (إحياء الآداب الإغريقية) :

وقد قامت هذه الحركة ببعث الآداب الإغريقية اليونانية، وكانت هذه الحركة التي عمت أوروبا فيما بعد تحمل «التمرد» و«التحرر» من قبضة الكنيسة، وكان النحاتون والرسامون والشعراء يحاكون الوثنية اللادينية عند الإغريق.

ثانياً: حركة الإصلاح الديني:

لقد كان لشدة الاضطهاد والاستبداد من قبل الكنيسة أثر كبير في حصول إرهاصات التغيّر والتحول الفكري في أوروبا. فقد وصلت الكنيسة إلى ذروة العدوان والظلم والاستبداد في فرض وصايتها الفكرية على العلماء والملوك وعموم الناس، واعتبار الخروج عن آراء رجال الدين خروجاً عن الدين نفسه، وهرطقة توجب التنكيل والقتل والإحراق.

هذا بالإضافة إلى العقائد الخرافية المضادة للعقل التي جعلت رجال الدين وسطاء بين الإنسان وربه. وقد كانت فكرة «صكوك الغفران» هي الشرارة التي أشعلت المقاومة ضد استبداد الكنيسة وطغيانها على يد رجل دين أوغسطيني ألماني هو «مارتن لوثر»(١).

وقد كان انشقاق لوثر عن الكنيسة حدثاً فكرياً عظيماً له

---

(١) مارتن لوثر (Martin Luther) راهب ألماني، زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا. ولد سنة ١٤٨٣م. هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران، علق على باب كنيسة ويتينبرغ احتجاجه المؤلف من خمس وتسعين فقرة، حرمه البابا «ليو العاشر» من شركة المؤمنين. ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية الدارجة، فكان لذلك أثر كبير في تطور الأدب الألماني .توفي سنة ١٥٤٦م. معجم أعلام المورد ص / ٣٨٩.

آثار بليغة في تطور الفكرة الليبرالية فيما بعد. وقد سجل اعتراضه على الكنيسة في وثيقة مكونة من خمس وتسعين فقرة وعلقها على باب كنيسة قتبنرغ عام ١٥١٧م، فلما أصدر البابا مرسومه بطرد «لوثر» من الكنيسة أحرقه في ملأ كبير من الناس عام ١٥٢٠م .

ويمكن الإشارة للأفكار المتحررة لدى لوثر في القضايا التالية[١]:

١ – إن السلطة الدينية الوحيدة هي نصوص الإنجيل، وليس آراء رجال الدين وفهومهم الخاصة .

٢ – إنكاره للتنظيم الكنسي البابوي الذي يستمد طاعته باعتباره خليفة للمسيح نفسه .

٣ – نفيه لعقيدة الغفران والحرمان .

٤ – الدعوة لحرية الفكر، والخروج من استعباد رجال الدين واحتكارهم للآراء الخاصة، وفهم الكتاب المقدس، ودعوى الأسرار المقدسة، وإهمال العقل ومنافاته باسم الدين.

(١) انظر: محاضرات في النصرانية ص/ ٢٢٤ .

ثالثاً: الفكر التجريبي المادي :

اعتمد الفكر العلمي لدى الكنيسة على الفلسفة اليونانية، لاسيما فلسفة «أرسطو» بشكل خاص، ثم اجتهد رجال الدين المسيحي في التوفيق بين اللاهوت الديني والفلسفة اليونانية فيما سمي «بالفلسفة المسيحية المدرسية» ومن أشهر رجالها القديس «أوغسطين»، و«توما الأكويني». فأصبحت الأفكار الفلسفية اليونانية ديناً إلهياً يعد الخروج عليها هرطقة توجب العقوبة والتنكيل .

لكن الفكر التجريبي الذي غزا أوروبا بفضل المسلمين حطم المنطق الأرسطي، وتم بناء منطق حديث يعتمد على التجربة، وفرض الفروض واختبارها للوصول إلى الفرض الصحيح، ومن خلاله بدأت النهضة الأوروبية في العلم المادي في كافة التخصصات .

وقد كان للنظريات العلمية التي صاحبت هذا الفكر نتائج مؤثرة في الفكر الأوروبي والتوجه به نحو التحرر من الدين والفكر العقيم الذي كانت تروج له الكنيسة، وتلبسه لباس الدين .

دور الطبقة الوسطى في ظهور الليبرالية :

يعتبر «النظام الإقطاعي» الذي سيطر على أوروبا في العصور

الوسطى من أقسى الأنظمة وأكثرها عنصرية وطبقية. وهو مكوّن من طبقتين إحداهما: السادة، (النبلاء والملوك)، وهم الطبقة السياسية، ورجال الدين (الاكليروس)، وهم الطبقة الدينية، والثانية: الفلاحون (الرقيق) وهم عامة الشعب.

ويتميز هذا النظام بالثبات والجمود، والاعتماد على الزراعة، والتبادل العيني، وضعف حركة النقد والتجارة. وقد كان أغلب المجتمع الأوربي من العمال في إقطاعيات النبلاء، وهم ليسو عبيداً بالمعنى الحقيقي، ولكنهم أرقاء في الأرض التي يملكها النبيل لا يستطيعون فراقها، لعدم وجود بديل يكفيهم أو يحميهم.

ومن عامة الشعب نشأت طبقة ثالثة ليست من النبلاء، ولا الرقيق، يعتمدون على التجارة والكسب من غير أن يكونوا رقيقاً في الأرض. ويدخل في هذه الطبقة التجار، والمدرسون، والأطباء، والمهندسون، وأصحاب المهن الحرّة. وقد عرفت هذه الطبقة بالطبقة الوسطى (البرجوازية)[1].

---

(١) البرجوازيّة (Bourgeoisie) طبقة اجتماعية تتألف من التجار والصناعيين. تميزاً لها عن الطبقة الأرستقراطية المالكة للأراضي، وعن المزارعين، والأُجراء أو العاملين لقاء أجر أو راتب، ويطلق اسم البرجوازيّة، توسعاً، =

وقد ضاق التجار وأصحاب رؤوس الأموال من القيود والانغلاق الذي يقف حائلاً دون تنمية رؤوس أموالهم، وتوسيع طموحاتهم المادية، وقد كانت لهذه الطبقة الجديدة دور بالغ الأهمية في تأسيس مجتمع السوق القائم على المنافسة، كما كان لها أثر بالغ في التحولات الاجتماعية في أوروبا، والوقوف في وجه الإقطاع والكنيسة. وقد كان يعوز هذه الطبقة :«النظرية الفلسفية» التي تساعدهم في الخروج من قبضة الإقطاع والكنيسة، وقد وجدوا بغيتهم في «الليبرالية» التي تقوم على «الحرية الاقتصادية» ورفع العوائق عن آليات السوق، وترك حركته مرسلة دون تدخل أو رقابه.

وقد وقفت البرجوازيّة في صراعها مع النظام الإقطاعي مواقف متباينة غير متناسقة، رائدها المصلحة الذاتية المتناسبة مع الظروف المرحلية المناسبة لها. فقد ساندت الأباطرة والملوك ضدّ النبلاء ورجال الدين، ثم أشعلت

= على الطبقة الوسطى. أمّا في النظرية الماركسيّة فالبرجوازيّة ترادف الطبقة الرأسمالية. والمصطلح فرنسي الأصل، وكان يقصد به بادئ الرأي، الصنّاع اليدويون العاملون في المدن الوسيطيّة المسوّرة التي كانت تعرف بـ «البورجات bourgs» موسوعة المورد ٢ / ١٠١ .

الثورات ضدّ النظام الملكي الارستقراطي بدرجات متفاوتة، ولمّا سيطرت على فرنسا عن طريق الثورة الفرنسيّة واضطراب الأوضاع، تحولت إلى دكتا توريّة صارمة من خلال إمبراطوريّة «نابليون بونابرت»[1]. وقد كانت هذه الطبقة من أبرز أسباب تحطّم النظام الإقطاعي القديم، والإتيان بنظام يعتمد الحريّة الفرديّة، ويخدم أهداف هذه الطبقة.

وبهذا نستطيع أن نقول إن الليبرالية هي فكر ومنهج الطبقة الوسطى، باعتبارها تقوم على أساس الفرديّة، وخاصة من خلال آراء «جون لوك» في الملكيّة الخاصة. وقد انتقلت الليبرالية من الفكر المجرّد إلى الواقع العملي من خلال: الملكية الدستورية في انجلترا (١٦٨٨م)، والثورة الأمريكية (١٧٧٥م)، والثورة الفرنسيّة (١٧٩٨م).

* * *

(١) انظر: كتاب الصراع بين البرجوازيّة والإقطاع (كله).

اتجاهات الليبرالية

أولاً: الليبرالية الكلاسيكية[١]:

هذا الاتجاه هو النموذج المعتمد لليبرالية فهو الأقدم من حيث النشأة حيث ظهرت في القرن الثامن عشر، وكذلك تعود إليه الأفكار الليبرالية القديمة، ويعتمد هذا الاتجاه على الحرية الفردية، ومنع تدخل الدولة وغيرها سواء في الاقتصاد أو غيره، ويعتقد الكلاسيكيون أن ترك الفرد يحقق مصلحته الذاتية الخاصة كفيل بتحقيق المصلحة العامة للمجتمع بشكل طبيعي دون تدخل بشري.

ثانياً: الراديكالية الفلسفية[٢] (مذهب المنفعة القانونية):

يعتبر هذا الاتجاه في جوهره برنامج من إصلاحات قانونية واقتصادية وسياسية، تعتمد على مبدأ «تحقق أعظم

---

(١) الكلاسيكية تعني: التقليدية.

(٢) الراديكالية ليست مذهباً، ولكنها حالة فكرية، (انظر: تاريخ الفكر السياسي ص٥٢)، وكذلك الفلسفية لأن آثار بنثام في المنفعة ليست آراء فلسفية خاصة، ولم يكن نبثام معروفا بالأصالة الفلسفية كما يرى المؤرخ جورج سباين (انظر: تطور الفكر السياسي ٤ / ٨٩٦) ولكن الكتّاب درجوا على تسمية هذا الاتجاه بهذا الاسم، وما بين القوسين هو توضيح من اجتهادي.

السعادة لأكبر عدد» .

ويعود هذا الاتجاه «لجيرمي بنثام»، و«جيمس ملْ»[١] وغيرهما، وقد بني على أساس أخلاقي وهو أن مبدأ المنفعة معيار للصواب والخطأ، والمنفعة هي تحقيق اللذة والتخلص من الألم، واللذة والتحرر من الألم هو الغرض الوحيد للرغبة والإرادة .ويحتجون بأن الضرورة النفسية تقتضي أن يعمل كل واحد بالطريقة التي يعتقد أنها تجلب له أكبر قدر من اللذة وتحرره من الألم .

فجوهر مذهب المنفعة تحقيق اللذة والمصلحة الذاتية الخاصة، وأن هذا هو معيار الحق والباطل، والصواب والخطأ. وبهذا تكون الحقيقة الطبيعية للنفس الإنسانية هي الأنانية، وحب الذات، والأثرة .

ثالثاً: الليبرالية الفكرية :

ارتبطت الليبرالية في المجال الفكري بجهود «جون

---

(١) جيمس مل (James Mill) مؤرخ وفيلسوف وعالم اقتصاد وبريطاني، والد جون ستيوارت، ولد سنة ١٧٧٣م، يعتبر أبرز ممثلي مذهب المنفعة، عرف بتوكيده على الحاجة إلى أساس علمي للفلسفة واستشراف إنساني للسياسة وعلم الاقتصاد، توفي سنة ١٨٣٦م. انظر: معجم أعلام المورد، ص: ٤٣١ – ٤٣٢ .

ستيورات ملْ»، وقد جاءت جهوده في فترة مهمة من تاريخ الليبرالية، وقد اقتضت هذه الفترة وجود آراء تجديدية، لأن الشعارات الليبرالية تبين زيفها مما دعى لإعادة التقويم لليبرالية .

وقد كانت لجون ملْ جهود تطويرية في مجالات متعددة، يعنينا منها إبرازه لحرية الفكر والرأي، وانتقاله من الكلام في ليبرالية الدولة إلى الحديث في ليبرالية المجتمع، ومن خلال حرية الفكر والرأي انطلق ملْ في آرائه السياسية .

يقول «سباين» في تجديدات ملْ: «إن ما اعترف به ملْ لم تره أبداً الليبرالية القديمة: إنه لابد أن يكون وراء كل حكومة ليبرالية مجتمع ليبرالي ... فالمجتمع أو الجماعة يصبح عاملاً هاماً ثالثاً، وعاملاً له الغلبة في العلاقة بين الفرد والحكومة، وفي كفالة حرية الفرد»[١].

ومن زاوية حرية الفكر والرأي انطلق ملْ ـ أيضاً ـ لبناء الحضارة على أساس التسامح الديني الذي لا يقطع صاحبه برأي أو دين معين [٢].

---

(١) تطور الفكر السياسي ٤ / ٩٣٨.

(٢) انظر: تطور الفكر السياسي ص / ٩٣٢.

رابعاً: التحليل الحدي (المدرسة الكلاسيكية الحديثة):

ظهر هذا الاتجاه في ظروف اجتماعية متناقضة، وناقمة على أسلوب الإنتاج الرأسمالي، فهو اتجاه فكري اقتصادي ليبرالي، وأسلوب جديد مبتكر للتحليل الاقتصادي وقد قام هذا الاتجاه على فكر ثلاثة من أبرز الاقتصاديين الليبراليين وهم: «ستانلي جيفونز»، «وليون فالراس»، و«كارل منجر».

وقد تأثر هذا الاتجاه بفكر «الراديكالية الفلسفية»، حيث يرون أن مشكلة علم الاقتصاد هي إشباع حاجاتنا إلى أقصى حد بأقل جهد.

ووضعوا على هذا الأساس نظرية في القيمة توهموا أنها خرجت من الفكر الاقتصادي المحض دون ارتباط بأي نظام اجتماعي لاعتمادها على المنفعة[١].

خامساً: الليبرالية الاجتماعية:

يعد هذا الاتجاه من أقوى وأشهر الاتجاهات الليبرالية في مقابل الليبرالية الكلاسيكية وهو صورة من صور تنازل الليبرالية عن تطبيق منهجها الصارم المتمثل في الكلاسيكية والمبرر لظهور هذا الاتجاه هو المساوئ الاجتماعية العنيفة،

---

(١) انظر: دليل الفكر الاقتصادي ص/ ١١٤ .

والأزمات المتعددة لليبرالية، ومن أبرز هذه الأزمات أزمة الكساد العظيم في ١٩٢٩م وما بعدها، وانتشار البطالة ووصول طبقات من المجتمع إلى قريب من الموت وعدم وجود ضمانات صحية وتعليمية، وغيرها[١].

ولهذا تعالت الأصوات بضرورة تدخل الدولة وقيامها بدورها الايجابي، وعدم ترك المجتمع لوحشية الرأسماليين، ومع أن الليبرالية في صورتها الحقيقية يمثلها النموذج الكلاسيكي إلا أن التراث الليبرالي يتضمن آراء اجتماعية تعالج شيئاً من أضرار الليبرالية، وهي أضرار نابعة من ذات الليبرالية وتكوينها الأساسي.

سادساً: الليبرالية البراجماتية[٢]:

هذا الاتجاه هو اتجاه «الليبرالية الأمريكية»، فقد بدأت الليبرالية الأمريكية متأثرة بجون لوك، ولكن ما لبثت أن تطورت بعد الثورة الصناعية الهائلة لتصبح أكثر عملية ومادية، ومن ثم اعتنقت فلسفة جديدة تعتمد على النتائج العملية في النظرة للحياة وهي (البراجماتية) وقد أصبحت

---

(١) انظر: ص / ٢٢٢ من هذا البحث.

(٢) البراجماتية (pragmatism).

النظرة الأمريكية الجديدة للحياة (البراجماتية) بمثابة إصلاح وتعديل للفكر الليبرالي ليكون موافقاً لروح العصر وظروفه المتغيرة، وليكون دعماً لتقدمه ونموه في ظل المتغيرات التقنية .

والبراجماتية فلسفة أمريكية خالصة تركز على فردية الإنسان ونفعيته بصورة عملية مستقبلية، ويدل على توافق الليبرالية والبراجماتية قول وليم جيمس :

«دع كل إنسان يؤثر الجانب الذي يرتضيه، أعني الجانب الذي يجلب له السعادة في نفسه ويهيئ له حياة مطمئنة يعيش فيها بمقتضى ما اقتنع به، واترك للمستقبل أن يحكم على موقفه بالصواب أو الخطأ»[١]، وهذا النص يدل على اشتمال البراجماتية على الحرية الفردية النفعية .

ولكن البراجماتية تتميز بأنها فلسفة عملية، ولهذا أخذتها الليبرالية الأمريكية كمعيار تقيس به نتائج الأفكار الليبرالية، لأن البراجماتية تعتبر النتائج الموفقة دلالة على أنها هي الحق والصدق، فالحق والصدق يضع من خلال القوة في ميدان الحياة الفسيح .

---

(١) نقلاً عن مفهوم الليبرالية عند جون ديوي ص / ١٩١ .

وبهذا نستطيع القول بأن البراجماتية قد وطّدت دعائم الليبرالية في المجتمع الأمريكي من خلال التركيز على الفردية النفعية، والعمل كمقوم للحق والصواب، ومن خلال تقديم حلول للمشاكل اليومية التي تكتنف حياة الأفراد، وتوقف تقدمهم، لأن هذه المشاكل تقيّد حرية الأفراد في تشكيل الوجود الإنساني بصورة فعّالة ومؤثرة، وهذه الصورة تخدم التقدم العلمي وتفسح مجالاً أوسع للعمل الإنساني، فالبراجماتية والليبرالية وجهان لعملة واحدة، وهذه العملة هي إطلاق كافة القدرات الفردية لتحقيق التقدم، والعمل على إزالة كل العوائق المثبطة لهمة التفوق والأفكار لدى الأفراد، وهما دعامة قوية للرأسماليين بحجة قوتهم على العمل ونتائجه العظيمة التي تخدم الأفراد، حسب تصورهم[1].

سابعاً: الليبرالية الجديدة:

هذا الاتجاه هو آخر أطوار الليبرالية، وهو الليبرالية التي تبنته الدول الصناعية الكبرى والمنظمات الدولية كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنظمة

---

(١) انظر في موضوع الليبرالية البراجماتية: المصدر السابق ص / ١٨٦ – ١٩٦، وحياة الفكر في العالم الجديد ص ١٧٦، ١٧٣، ١٦٨.

التجارة العالمية وبدأت آثاره ومعالمه تتضح أكثر فأكثر .

وقد أصبح صوت هذا الاتجاه هو المرتفع لتبني الإمبراطورية الأمريكية له، لاسيما في ظل نظام القطب الواحد وقد شعرت بقية الدول المعتقدة لأفكار اقتصادية غيره تشعر أنه لا مجال في قبوله ولا مندوحة عنه، ولهذا أخذت في تعديل ما تعتقده من أفكار ليتوافق معه، ويسير مقارناً له، كما حدث في الاتحاد الأوروبي الذي يعتقد أكثر أعضائه الليبرالية الاجتماعية .

الليبرالية بين الصعود والهبوط :

بدأت الليبرالية في عصر النهضة الأوروبية ثم تطورت في عصر التنوير، وكان أعلى فترة صعدت فيه هو القرن التاسع عشر الميلادي، وهو القمة التي وصلت إليها الليبرالية ولم تعد إلى مستواها بعده، وقد هبطت الليبرالية في القرن العشرين هبوطاً كبيراً بعد ظهور نتائج الليبرالية الكارثية، ولكنها بدأت مرحلة جديدة بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي .

* * *

مجالات الليبرالية

١- الليبرالية السياسية:

تعتمد الليبرالية على «الحرية الفردية» كمفهوم أساسي لها، ولكنها تواجه وضعاً طبيعياً في الحياة الإنسانية وهو أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ومن صور حياة الإنسان الاجتماعية «الحياة السياسية»، وقد وجد لليبرالية أفكار سياسية تحاول الجمع بين ضرورة المحافظة على حريات الأفراد، وتنظيم شؤونهم السياسية.

وقضية العلاقة بين الفرد والمجتمع «قضية أساسية» في الفكر الليبرالي، والأساس المشترك بين جميع الليبراليين هو ضمان حرية الفرد، وعدم التدخل فيها، مع تنظيم المجتمع سياسياً واقتصادياً بما يوافق هذه الحرية. ولهذا يختلف الليبراليون في طريقة تنظيم المجتمع بناءً على مدى ضمان حرية الفرد، أو التدخل المسموح، والممنوع فيها، وأساس هذا الاختلاف هو محاولة فك الاشتباك الحاصل بين «مفهوم الحرية والمساواة»، فالحرية الفردية إذا كانت منفردة أضرت بالمساواة، والمساواة الكاملة تضر بالحرية الفردية.

وقد اتجه بعض اللبراليين إلى تغليب جانب الحرية ـ وهذا هو الأصل في الفكر الليبرالي ـ فمنع تدخل الدولة حتى على مستوى إعانة الفقراء والمحتاجين، وحماية البيئة، وغلّب آخرون جانب المساواة فطالبوا بالحد من الحريات لمصلحة المساواة الاجتماعية. وكذلك يحصل الاختلاف في أشكال الحكومات وصورها، وأنواع التدخل المشروع وغير المشروع في المجال الخاص للفرد.

وأشير هنا إلى أبرز المعالم السياسية لليبرالية: وهي: نظرية العقد الاجتماعي باعتبارها النظرية الأساسية في تكوّن الدولة، وعلاقتها بالأفراد. والحقوق الأساسية للأفراد. وفصل السلطات باعتباره أهم ضمانات الحرية الفردية. وحدود سلطة المجتمع على الأفراد، وحرية التعبير .

أولاً: نظرية العقد الاجتماعي:

تعود فكرة وجود عقد بين الحاكم والمحكوم، أو بين الدولة والأفراد في الفكر الأوروبي إلى الفلسفة اليونانية والرومانية، فكثيرٌ من السوفسطائيين بنوا تصورهم للدولة على أساس تعاقدي، وفي الفكر اليوناني «ذهب «كارتيادس» إلى أن الناس كانوا يعيشون قديماً بلا قانون وكان كل منهم

يعتدي على الآخر مما أدى إلى انتشار القلق والخوف ولذلك ابرموا عقداً فيما بينهم يخضعون وفقه لنظام يختارونه»[١] «وهذا الرأي اعتنقه كثير من الأبيقوريين وقد نقل «المدرسيّون» هذه الفكرة إلى المسيحية وحاولوا التوفيق بينها وبين الكتاب المقدس، ولكن هذه الفكرة صار لها شأن كبير في مطلع العصر الحديث على يد «توماس هوبز»، وقد عرضها بصورة علمانية محضة، حيث تصور حصول العقد دون أي علاقة بالدين، وأصبحت الأساس النظري للقانون الوضعي، والسياسة المعاصرة»[٢].

ثم جاء بعده «جون لوك» وقد وافقه في فكرة العقد الاجتماعي، بينما خالفه في طبيعة الإنسان، حيث اعتبر الإنسان خيّر بطبعه، وأن حالة الطبيعة عنده هي حالة سلام، وإرادة طيبة، ومساعدة متبادلة وحرية، ومساواة.

والحرية في حالة الطبيعة غير محدودة، ولكنها محكومة بقانون طبيعي، وهو ملزم لكل أحد وليس هناك سلطة عليا، ولا سيادة لأحد على الآخر، فهذه الحرية والمساواة بين

---

(١) تراث الإنسانية ـ العقد الاجتماعي ـ١/ ٥٧٤

(٢) المصدر السابق

الناس في حالة الطبيعة هي الأساس في وجود ملكية خاصة تبرر نفسها بالعمل، وتوصل لتكوين مجتمع مدني وحكومة مهمتها حماية هذه الملكية[١].

ومن خلال تأمل نظرة «لوك» للعقد الاجتماعي يتبين أن الإنسان بعد العقد متطور عن حاله قبل العقد، وليس مختلفاً عنه، ولكن فائدة العقد هي تنظيم المحافظة على الملكية الخاصة وإعطاء الشرعية للمجتمع الجديد المحافظ على هذه الملكية .

وإذا لم يلتزم الحاكم بمقتضى العقد بينه وبين الأفراد فإنه يجوز للأفراد الثورة لاسترجاع حقوقهم، وبهذا يقرر«لوك» شرعية الثورة على النظم الملكية المطلقة، والارستقراطية التي لا تحمي حقوق الأفراد وممتلكاتهم .وهو بهذا يبرر الثورة الانجليزية على الملكية ويؤيد الحكومة المقيدة مثل «الملكية الدستورية».

ومع أن «جون لوك» خالف «هوبز» في تصوره لطبيعة الإنسان، وأنه في حرب مع الآخرين إلا أنه وافقه في طبيعة

---

(١) انظر: الليبرالية إشكالية مفهوم ص / ٧٢ – ٧٣ .

الإنسان الفردية الأنانية والتي تستمر معه بعد العقد، وذلك من خلال الملكية الخاصة، وهي المدخل الليبرالي لفكر «لوك» السياسي والاقتصادي.

ثم انتقلت فكرة «العقد الاجتماعي» إلى «جان جاك روسر» فطورها وكتب فيها كتابه الشهير «في العقد الاجتماعي».

وقد انطلق روسو في تصور العقد من الصورة المفترضة الخيالية[١] عن حالة الطبيعة للإنسان وافق «لوك» في طبيعة الإنسان الخيّرة، واتسام حالة الطبيعة بالحرية، والمساواة، والسعادة[٢].

ولكن حالة الطبيعة لم تستمر على صورتها المثالية، بسبب ازدياد السكان والنمو الاقتصادي، وتخلي الحياة البشرية عن طبيعتها مما ولد الصراع وفقدان الأمن،

---

(١) يرى جون لوك أن العقد حقيقة تاريخية واقعية، وهذا مع مخالفته للواقع فهو مخالف أيضاً لرأي أكثر المفكرين الذين نظّروا له ووضحوا صورته ولهذا يرى كانت أن العقد أسطورة تاريخية، لكنها تحمل حقيقة فلسفية (المصدر السابق).

(٢) انظر: في العقد الاجتماعي ص / ٤٣.

وللمحافظة على الأمن أقيم المجتمع المدني على أساس العقد الاجتماعي[١].

ولهذا العقد شروط اقتضت تخليه عن حرياته الطبيعية لا يجوز الإخلال بها لأن أدنى تعديل يجعلها باطلة، ويلغي دور العقد ولوازمه[٢].

والتنازل عن الحرية الفردية الذي ينتقل بموجبه الفرد من حالة الطبيعة إلى المجتمع المدني، ليس معناه التنازل المستبد، لأنه يتنازل للمجتمع، وليس لفرد آخر أو جهة معينة.

وبهذا يتبين أن روسو يفرق بين نوعين من التنازل عن الحرية، الأول: لصالح فرد آخر، وهذا استبداد وعبودية، والثاني: لصالح الجميع دون أحد بعينه، وهذا نوع من الحرية يتكون بها المجتمع المدني.

وقد عظّم «روسو» دور الدولة باعتبارها الإرادة العامة، على خلاف طريقة الليبراليين الآخرين الذين يعتبرون الدولة شر لابد منه، وأن التقليل من نفوذ الدولة يعتبر زيادة في

---

(١) انظر: السياسة بين النظرية والتطبيق ص/ ٣١٥.

(٢) انظر: في العقد الاجتماعي ص/ ٤٩.

الليبرالية، بينما زيادة التدخل من الدولة يعتبر عدواناً على الفرد.

وهذا يؤكد أن «روسو» يعظّم الديمقراطية على حساب الليبرالية، ولا يكترث من تقييد الدولة لبعض الحريات، لأنه يعتبر هذا التقييد ناتج عن القانون، وطاعته حرية.

ومن خلال ما تقدم يلاحظ أن السيادة في الدولة الناتجة عن العقد تعتمد على اتفاق الأفراد، وأن شرعية نظام الدولة يرجع إلى التوافق بين أطراف العقد، ومراعاة الحقوق الطبيعية للأفراد، وهي حقوق مستمدة من قانون الطبيعة العقلي.فليس هناك مرجعية دينية غيبية يرجع إليها الأفراد لتنظيم الدولة بعد العقد، وقد حدد فلاسفة العقد الاجتماعي مرجعيتهم بوضوح وهو «قانون الطبيعة» المادي .

ثانياً : الحقوق الأساسية للفرد :

يعد القانون الطبيعي القاعدة والمرجعية للحقوق الأساسية للإنسان في الفكر الليبرالي، وهو المصدر الأساسي في التقنين الوضعي لها على شكل مواد محددة .

وأي حكم قانوني أو قضائي يخالف هذه الحقوق فهو لاغٍ لا قيمة له، لأن هذه الحقوق هي أساس التشريع. وهذه

الحقوق تعتبر لاصقة بالأفراد، وهي سابقة على القانون، وأعلى منه مكاناً لأنها أسبق من ظهور الدولة ونشأتها، وقبل العقد الاجتماعي فهي مأخوذة من حالة الطبيعة الأولى[1].

وقد ظهرت هذه الحقوق في إعلان حقوق الإنسان والمواطن في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م، والدستور الأميركي في ١٧ سبتمبر ١٧٨٧م، ثم تبنته هيئة الأمم المتحدة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م.

ومن هذه الحقوق: حق الحرية، والحياة، والعمل، وحرية التفكير والرأي، وحرية الاعتقاد، والحرية الشخصية ونحوها.

ثالثاً: فصل السلطات:

نشأت الحاجة إلى فصل السلطات في النظام السياسي الليبرالي باعتباره أكبر ضمان للحرية السياسية، وهو يعني انقسام السلطات إلى: تشريعية، وتنفيذية، وقضائية، بحيث تستقل كل منها بالتشريع، وتنفيذ القوانين، والقضاء، ولا تتدخل أي واحدة في شؤون الأخرى[2]. والسلطة عندما تكون بيد واحدة فإنها تكون سبباً في الاستبداد والطغيان.

---

(١) انظر: الوجيز في النظريات والأنظمة السياسية ص / ٣٣١.

(٢) انظر: تراث الإنسانية (روح القوانين) ١ / ٧٠٩.

رابعاً: حدود سلطة المجتمع على الفرد:

فسلوك الفرد الذي يجب عليه مراعاته مع بقية أفراد المجتمع هو:

أولاً: عدم الإضرار بمصالح الآخرين، وعلى أقل تقدير الحقوق الأساسية، سواءً ذكرت هذه الحقوق بنص القانون الصريح، أو بالفهم الضمني.

ثانياً: تحمل الفرد لنصيبه من الأعباء التي يفرضها الدفاع عن المجتمع، وحماية أعضائه من الأذى. «فمن حق المجتمع أن يفرض هذين الشرطين على أعضائه مهما بلغت محاولات التهرب منهما»[١]. أما إذا كانت تصرفات الفرد تؤذي غيره أو تخل بواجب دون أن تضل إلى حد انتهاك حق من حقوقهم، فإنه يجوز معاتبتهم بواسطة الرأي العام، وليس القانون[٢]

وهناك دائرة للفرد ليس للمجتمع فيها مصلحة مباشرة، ولكن له مصلحة غير مباشرة، هذه الدائرة تشمل حياة الشخص وسلوكه التي لا تؤثر إلا في نفسه، وحتى لو أثر في

---

(١) انظر: في الحرية (ضمن أسس الليبرالية السياسية) ص/ ٢٠٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص/ ٢٠٧-٢٠٨.

الآخرين برضاهم دون أي إكراه أو خدعة، فهذه الدائرة هي الحرية الشخصية التي لا يسمى «أي مجتمع بدونها مجتمعاً حراً».

خامساً: حرية الفكر والرأي:

المنطلق الأساسي لليبرالية هو «الحرية» كقيمة إنسانية ضرورية، ولهذا فإن من واجبات الدولة حفظ الحريات، وحرية الفكر والرأي من أهم الحريات، فهي الضمان اللازم لحماية الفرد من استبداد الحكومات ومفاسدها[١].

ويعتقد الليبراليون أن توسيع الخلاف، والتعددية في الآراء والأفكار ظاهرة إيجابية تنمي الفكر وتقوي الرأي، وتظهر الإبداع. ومن لوازم حرية الفكر عندهم :اعتقاد عدم امتلاك «الحقيقة المطلقة»، لأن دعوى امتلاك هذه الحقائق يمنع من التفكير الحر، فالإيمان المطلق الذي لا يعتريه أدنى شك لا يتوافق مع الفكر الليبرالي الذي لا يبني عقيدة محددة يقينية، لأن ذلك يناقض حرية الفكر والمناقشة حسب وجهة نظرهم.

ولهذا فالمعتقدات الدينية ـ عندهم ـ تعصب لاعتقاد

---

(١) انظر: الحرية ص / ٣٧.

المؤمن بها الجزم بعقيدته، واعتقاد المتدين بطلان الدين الآخر! ـ وهذا مما يناقض الإسلام كما سيأتي ـ.

ومن لوازم حرية الفكر عندهم ـ أيضًا ـ: «التسامح الديني»، وهو موقف ليبرالي ظهر أول الأمر أعقاب عصر الإصلاح الديني كرد فعل على الحروب الدينية، فأصبح التسامح محور «الموقف الليبرالي». وهذا الموقف (التسامح) يعني عدم اعتقاد يقينية الإنسان لرأيه أو فكره أو مذهبه أو دينه، لأن هذا الاعتقاد ينافي التسامح في الفكر الليبرالي. فالتسامح يقتضي الاعتراف بالآخر، وعدم الجزم في الأفكار، واحتمال صواب المخالف[1].

٢- الليبرالية الاقتصادية :

سبق أن بينّا أن «الليبرالية» ارتبطت في صعودها وأفكارها بالطبقة الوسطى (البرجوازية)، وهذا يدل على أن الجانب الاقتصادي أكثر أصالة في المذهب الليبرالي من الجانب السياسي. وقد اعتبر «جون لوك» الملكية الخاصة من أهم

---

(١) وهذا الموقف يشمل عندهم العقائد الدينية الأساسية مثل الإيمان بالله، واليوم الآخر، والرسل، والملائكة وغيرها، والموقف الليبرالي يقتضي عدم الجزم واليقين بصحة هذه العقائد وغيرها.

الحقوق الأساسية للفرد، ولهذا أعطى المُلاّك حق الانتخاب، ومنع غيرهم من هذا الحق، وقد كان الصراع الفكري بين الليبراليين والإقطاع يتمثل في «حرية العمل»، وهذا الصراع نفسه القائم بين الرأسمالية الناشئة والإقطاع، مما يؤكد أن «الليبرالية» آيديولوجية للرأسمالية. وقد تعددت آراء الليبرالية في الحرية الاقتصادية، وعلاقة الدولة بها تعدداً كبيراً، وكان للأحداث السياسية العالمية أثر جليّ في هذه الآراء، وخاصة الحربين العالميتين الأولى والثانية .

* * *

الليبرالية في العالم الإسلامي

كانت أغلب البلاد الإسلامية تحت حكم الدولة العثمانية في عصر النهضة الأوروبية، وهي دولة قائمة على تحكيم الشريعة الإسلامية في الجملة، وكانت الدولة العثمانية هي الحامية لبيضة الإسلام والقائمة على نشر العلم واحترام العلماء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحاملة لراية الجهاد في سبيل الله، وقد فتحت أقطاراً واسعة في القارة الأوروبية، وأخضعتها للإسلام[١].

وقد تسللت الليبرالية إلى البلاد الإسلامية من خلال «الجمعيات السرية» التي كونها أفراد تأثروا بالفكر الغربي وانبهروا بحضارته المادية. وقد كانت بقية الأمة الإسلامية ثابتة على دينها لا تحتاج إلى الأفكار والنظم الغربية، وهي معتزة بدينها واثقة بصحته، وصلاحيته للحكم والعمل في

---

(١) وقد كان ذلك في أولها أكثر منه في آخرها لا سيما عندما ارتبطت بغلاة الصوفية، لكنها بشكل عام لم تحمل كيداً ونفاقاً على الأمة كما حصل بعدها.

كل زمان ومكان [١].

ولكن وجدت عوامل أضعفت ثقة الأمة بدينها، وهيئت المجتمع الإسلامي لتقبل الليبرالية وعدم مقاومتها، وهذه العوامل هي: الانحراف العقدي، والاستبداد السياسي، والجمود والتقليد، وهي ليست أسباباً مباشرة في وجود الليبرالية، ولكن هذه العوامل أوجدت أرضية متقبلة، ومناخاً مناسباً للرضى بالليبرالية، والسكوت عليها .

ولا شك أن السبب المباشر لدخول الليبرالية في العالم الإسلامي هو «الاستعمار وأذنابه» من دعاة التغريب، والمنبهرين بالحضارة الغربية، ولكن دخولها لم يكن له أن يتم لولا وجود عوامل معينة ساعدت على عدم الوقوف الجاد في وجه هذه الأفكار الإلحادية .

ويجمع هذه العوامل «الانحراف»، وقد تم هذا الانحراف على يد الفرق الضالة كالمرجئة والصوفية ودعاة المذهبية،

---

(١) لبيان كيفية تسلل الليبرالية إلى العالم الإسلامي، ورموزها الذين روجوا لها؛ يُنظر بحث «كيف تسللت الليبرالية إلى العالم الإسلامي ؟»، منشور بموقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت (www.saaid.net).

فهذه الانحرافات ساعدت على وجود الفكر الليبرالي عندما قدم مع الاستعمار وقد استغل المستعمرون هذه الانحرافات أبشع استغلال، ووظفوها في خدمة أهدافهم.

ولما احتُلت بلاد المسلمين فُرضت الليبرالية عليها في النظام السياسي والاقتصادي، ولما رأى الاحتلال عدم تقبل المسلمين لأي أمر غير مرتبط بالإسلام جاء بفكرة «تطوير الإسلام وتحديثه»، ومن هذه الفكرة خرج «مشروع الإسلام الليبرالي».

عوامل ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي:

أولاً: الانحراف العقدي:

الانحراف العقدي هو السبب المباشر في ضعف الأمة الإسلامية وتخلفها وانحطاطها، وتراجعها في القرون المتأخرة، وتأثير الذنب (الانحراف العقدي) في الإنسان والمجتمع حقيقة شرعية، وسنة ربانية قدّرها الله تبارك وتعالى في هذه الأمة، وهي من باب العقوبة على الذنب بالمصيبة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً

أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فالضعف والهوان، والقابلية للمبادئ المنحرفة حصلت في الأمة الإسلامية بعد التغيير والتبديل في العقائد والتصورات.

ويبين هذه الحقيقة قول النبي ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[١] فقد رتّب الذل والهوان على الانحراف.

وقوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية**

---

(١) رواه أبو داود - كتاب الإجارة - باب النهي عن العينة - رقم ٣١٧٣ (٣/ ٥١٨)، وأحمد في المسند - (٢ / ٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرى - كتاب البيوع - باب المزابنة والمحاقلة - (٥/ ٣١٦)، والطبراني في المعجم الكبير - رقم: ١٣٤٠٨ - (١١/ ٦٣) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة - رقم (١٠)، والشيخ أحمد شاكر تحقيق المسند - رقم ٤٨٢٥ - (٧/ ٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

الموت»[1].

فالأمة الإسلامية إذا التزمت بدينها عقيدةً وعملاً وسلوكاً فإنه لا يمكن للعدو أن يخترقها، لأنها بعيدة عن روح الانهزامية، واثقة بدينها، تبني هذه الدنيا بما يوافق منهج الله تعالى.

ولبيان حقيقة الانحراف العقدي في الحياة الإسلامية العامة، وآثاره العميقة، فإنه يجدر بنا توضيحه من خلال النقاط التالي:

أ - الفرق الباطنية المنحرفة وآثارها:

الباطنية: اسم عام يدخل تحته عدد كبير من الفرق الكافرة في الحقيقة مع بقاء انتسابها للإسلام في الظاهر، ومنها: الإسماعيلية، والنصيرية، والدروز، والقاديانية، والبهائية، والرافضة لاسيما في العصور الأخيرة. وليس المقصود هنا

---

(١) رواه أبو داود - كتاب الملاحم - باب تداعي الأمم على الإسلام - برقم: ٤٢٩٧ (٥ / ٣٨)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٨)، والبيهقي في دلائل النبوة - جماع أبواب إخبار النبي ﷺ بالكوائن بعده - باب إخباره بتداعي الأمم على من شاء الله من أمته إذا ضعفت نيتهم (٦ / ٥٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنة أبي داود - رقم ٣٦١٠ (٣ / ٨١٠) من حديث ثوبان ﷺ.

بيان عقائدهم على التفصيل، ولكن المقصود بيان آثار هذه الفرق على المجتمع الإسلامي، فمن هذه الآثار:

إشاعة العقائد الكفرية بين المسلمين، وإلصاق هذه العقائد بالإسلام، فهذه الفرق لا تدعي أنها أديان مستقلة عن دين الإسلام، بل يدعي أصحابها أنهم مسلمون مع المناقضة التامة بين عقائدهم وبين الإسلام.

٢- تفريق صفوف المسلمين وإشاعة الفوضى والاضطراب فيها، وقد كان لهم دول وحكومات وحركات وجماعات، وقد قاموا بحروب طاحنة داخل المجتمع الإسلامي، وأشغلوا الدول الإسلامية بمقاومتهم ورد كيدهم[1].

٣- التعاون مع اليهود والنصارى للكيد بالمسلمين؛ وقد كان لهم دور خبيث في إعانة الاستعمار ومساعدته في الاستيلاء على بلاد المسلمين.

فعندما احتل الفرنسيون سوريا، وقام المسلمون بجهادهم، وقف النصيريون مع الاحتلال الفرنسي ضد

(١) انظر: شواهد في ذلك: الانحرافات العقدية والعلمية ص / ٥٦٤ – ٥٦٦ .

المجاهد «إبراهيم هنانو»[١] ومن معه من المجاهدين[٢].

وقد جعل الفرنسيون ـ بعد احتلال بلاد الشام ـ للنصيريين دولة سموها «دولة العلويين» مكافأة على تعاونهم معهم[٣].

ومن خدماتهم العملية للفرنسيين المساهمة الفعالة في إسقاط الدولة العثمانية، وذلك عندما قام الزعيم النصيري

---

(١) إبراهيم بن سليمان آغا هنانو أبو طارق. من كبار المجاهدين في الثورات الاستقلالية بسوريا. ولد في بلدة (كفر حارم) غربي حلب سنة ١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م. تعلم في المدرسة الملكية بالآستانة، وتنقل في بعض المدن التركية، ثم عاد إلى بلدته سنة ١٣٢٦هـ فانتخب عضواً في المجلس العمومي بحلب. فعضواً في المؤتمر السوري بدمشق. وعضواً في (جمعية الفتاة) السرية. ولما احتل الفرنسيون مدينة إنطاكية انتدب لتأليف عصابات عربية تشاغلهم، وجعل مقره حلب، وسمي رئيساً لديوان واليها. وقد قاتله الفرنسيون فظفر، وألف حكومة وطنية ولقب بالمتوكل على الله. خاض سبعاً وعشرين معركة لم يصب فيها بهزيمة .حتى اعتقله البريطانيون في فلسطين وسلموه للفرنسيين، وحوكم في حلب عدة شهور انتهت باعتبار ثورته (سياسية مشروعة) وأفرج عنه فتحول إلى الميدان السياسي وكان شعاره (لا اعتراف بالدولة المنتدبة - فرنسا - ولا تعاون معها) واستمر إلى أن توفى بحلب سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م. الأعلام (١/ ٤١-٤٢).

(٢) انظر: الأعلام ١/ ٤٢.

(٣) انظر: دراسة عن الفرق ص/ ٢٥٨، وانظر شواهد كثيرة في كتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص/ ٣٣٤وما بعدها.

«صالح العلي»[١] بقطع الطريق التي تصل طرطوس بحماة مما جعل الأتراك يخسرون كثيرا، ولما قام «كمال أتاتورك»[٢]بإسقاط الخلافة عقد العلي اتفاقية معه، وقد عفا عنه الفرنسيون بعد ثورة مشبوهة ضدهم، وهذا ما لم يكن يفعله الفرنسيون مع المجاهدين الصادقين[٣].

وقد ساعد الانجليز «حسن علي شاه» (١٢١٩–١٢٩٨هـ)

---

(١) صالح بن علي العلوي، ولد في قرية (المريقب) سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م. كانت له زعامة في جبل العلوين ـ بقرب اللاذقية ـ وإقامته في بلدة (الشيخ بدر) من قضاء طرطوس .أعلن الفرنسيون حكمهم عليه بالإعدام، ولكنهم لم يهتدوا إليه، فأعلنوا له الأمان فظهر مستسلماً واعتزل بعد ذلك شؤون الحياة العامة، حتى شهد عهد الاستقلال في بلاده، توفى في قرية (المريقب) سنة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م. الأعلام (٣/ ١٩٣) .

(٢) كمال أتاتورك مصطفى، مؤسسة تركيا الحديثة، ولد سنة ١٨٨١م، في (سالونيك) إحدى مدن اليونان .كان جندياً في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى ،لم يعجبه الحكم العثماني، فقام بتأسيس الحزب الوطني التزكي، انتخبته الحكومة المؤقتة عام ١٩٢٠م رئيساً لتركيا .ألغى الحجاب الإسلامي للمرأة، واستبدل باللباس العربي اللباس الإفرنجي، وشجع استعمال الأبجدية الرومانية بدلاً عن العربية، وأدخل النموذج الغربي من العملة والقوانين والنقل. توفى سنة ١٩٣٨م. ألف شخصية عظيمة ص/ ٣٥٢–٣٥٣.

(٣) انظر: رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي ١ / ٢٦٣.

وهو من الطائفة الإسماعيلية ومنوه بحكم فارس فقام بثورة فاشلة في إيران، وبعد اعتقاله تدخلوا للإفراج عنه، ثم جعلوه إماما للإسماعيلية النزارية ولقبوه بآغا خان، والتف حوله الإسماعيلية بالهند[١].

ولا تقل خيانة الدروز وتعاونهم مع الاستعمار الصليبي ضد المسلمين عن بقية الطوائف الباطنية، ولا يزال الدروز في الجيش الإسرائيلي إلى اليوم، وقد تم تعيين رئيس حرس الحدود في الدولة اليهودية من الدروز[٢].

أما الرافضة فإن عقائدهم متوافقة في كثير من جوانبها مع الباطنية، وإن كان الغلو في الرافضة أقل من الإسماعيلية والنصيرية، ولكنهم يدخلون في الطوائف الباطنية لأنهم يعتبرون للنصوص الشرعية ظاهراً وباطناً[٣]، وقد كانت أكثر

---

(١) انظر: دراسة عن الفرق ص/ ٢٣٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٣١ وما بعدها، والانحرافات العقدية والعلمية ص/ ٥٧٤.

(٣) انظر نصوص كثيرة من كتب أئمة الشيعة الاثني عشرية (الرافضة) في كتاب: أصول مذهب الشيعة ١/ ١٥٠ وما بعدها، وسبب جهل الكثير لعقائد الرافضة الباطنية هي اعتمادهم على كتب الدعاية الشيعية لمذهبهم، وفيها تزيين للمذهب، وعدم ذكر هذه العقائد ولكن الاطلاع على الكتب الأصلية والحديثيه خاصة هي التي تنقل الروايات وتبين العقيدة الشيعية على حقيقتها، انظر المصدر السابق ١/ ١٩٣.

كتبهم غير معلنة[١]، إلى أن جاءت المطابع، وقد طبع منها الكثير لاسيما في الدولة الصفوية، والإيرانية مما كشف جوانب مجهولة عن عقائدهم.

وقد تعاون الرافضة مع الاستعمار ضد أهل السنة نكاية بهم[٢]، كما تعاونوا معهم في الوصول للحكم في إيران[٣]، ولا يزال تعاونهم مع المحتل الأمريكي في العراق ضد أهل السنة مشاهد للعيان .

أما البهائية والقاديانيّة فلا تقل عقائدهما خطورة على المسلمين[٤]،وتفكيكاً لصفوفهم من الإسماعيلية والنصيرية والدروز، وقد صُنعت على عين الاستعمار وتعاهدها بالرعاية ودعمها ودافع عنها.

---

(١) إلى درجة أن عالم موسوعي وهو ابن تيمية لم ينقل في كتابه الكبير منهاج السنة أي نص عن الكافي للكليني مع كونه عمده في المذهب ومؤلفه متوفى قبل ابن تيمية بزمن بعيد .

(٢) انظر شواهد لذلك: الانحرافات العقدية والعلمية ص/ ٥٧٨ – ٥٨٢، وسلسلة كتب «وجاء دور المجوس» .

(٣) انظر: الأبعاد العقائدية والسياسية والتاريخية للثورة الإيرانية (وجاء دور المجوس) – عبد الله الغريب –.

(٤) انظر في عقائد البهائية والقاديانية: عقيدة ختم النبوة – أحمد سعد حمدان– .

ب – الإرجـاء وآثـاره:

يعتبر الإرجاء من أخطر الانحرافات العقدية المؤثرة في حياة المسلمين، فمسألة الإيمان أهم مسألة عقدية لأنها أصل الدين وأساسه، وهي المعيار في معرفة المؤمن من الكافر، والموحّد من المشرك، فالانحراف فيها لا بد أن يكون له آثار عظيمة في المجتمع الإسلامي.

وقد بدأ الإرجاء كرد فعل لغلو الخوارج، وقد كانت ردة الفعل تقتضي تهوين ركن أساسي في الإيمان وهو «العمل»، فلم يعد داخلا في الإيمان عند المرجئة، بل وصل الغلو ببعضهم أن أصبح التصديق المجرد هو حقيقة الإيمان عنده، وبالتالي فالكفر هو التكذيب فقط.

ويمكن الإشارة باختصار إلى آثار الإرجاء كالتالي:

١ – انحسار مفهوم العبادة في القلب .

٢ – إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣– انتشار مظاهر الشرك في الأمة، دون نكير .

٤– جرأة أتباع المذاهب المنحرفة، وكثرة المنتمين إليها لأنهم يظنون أنها لا تؤثر على أصل الدين .

ج - التصوف وآثاره:

ظهر التصوف في فترة مبكرة من تاريخ المسلمين[١]، وتعود مصادره إلى نساك الهنود والفلسفة اليونانية الإشراقية، والزهد المسيحي وغيرها[٢]، وقد أطلق عليهم كتاب الفرق الأوائل اسم «الزنادقة»[٣]، ولا شك أن التصوف بصورته الراهنة ليس له علاقة بالزهاد والعباد الأوائل، بل هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإسلام وسلوكه.

وقد كان لانتشار التصوف في الحياة الإسلامية آثار مدمرة، ونتائج وخيمة، من أهمها: الفصل بين الحياة الدنيا والآخرة، وفهم الصوفية «للقدر» على أن العبد مجبور على فعله. وقد ترتب على هذا: أمور عظيمة؛ منها: ترك الجهاد في سبيل الله[٤]، وعدم السعي في عمارة الأرض بمنهج الله

---

(١) قيل: قبل المائتين (مقدمة ابن خلدون ص / ٤٦٧) وقيل في أوائل القرن الثاني ولم يشتهر إلا بعد القرن الثالث (مجموع الفتاوى ١١/ ٥).

(٢) انظر توضيح ذلك بالأمثلة: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص/ ٦٢ وما بعدها.

(٣) انظر: التنبيه والرد ص/ ٧٣ .

(٤) انظر في موقف الصوفية من الجهاد: الانحرافات العقدية والعلمية ص/ ٥٣٥ .

تعالى، وترك المجالات الحيوية في الأمة كالسياسة والاقتصاد والفكر والثقافة وبناء المجتمع ومعالجة القضايا المستجدة، وأدّى ذلك إلى الاستسلام التام للاستبداد والظلم والطغيان من الحكام الظلمة، وغيرها من النتائج المؤلمة(١).

ثانياً: الاستبداد السياسي(٢):

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية ص/ ٤٣٥ (الفصل كله).

(٢) من المفاهيم ذات العلاقة بالاستبداد: مفهوم **«الاستبداد الشرقي»** وهو مرتبط بأرسطو الذي أضاف الاستبداد للشرق الآسيوي ليميز بينه وبين الطغيان كما عرفه اليونان (انظر الموسوعة السياسية – كيالي –) **ومفهوم «الطغيان»** ولم يكن يعرف في المجتمع الغربي سوى الطغيان حتى جاء «مونتسكيو» ففرق بينهما، وفي هذه الفترة ظهر ما يعرف «بالمستبد المستنير»، ويعد **مفهوم «الاستبداد الديمقراطي»** من المفاهيم الجديدة التي جاءت بعد الثورة الفرنسية، وأول من أطلقه توكفيل في كتابه (**الديمقراطية في أمريكا**) ليصف به الأخطار التي قد تعترض الحرية في المجتمع الديمقراطي، وهو ما يعرف أيضاً بطغيان الأكثرية، وهي فكرة موجودة في كلام جون ستيوارت مل (ينظر: مسيرة الديمقراطية.. رؤية فلسفية- مجلة عالم الفكر (مجلد ٢٢، عدد ٢ ص/ ٣٩)، ومعجم العلوم الاجتماعية، مادة طغيان).

ومنها: **«مفهوم الدكتاتورية»** وهو مصطلح أجنبي معاصر يراد به «حالة سياسية معينة تصبح فيها جميع السلطات بيد شخص واحد يمارسها حسب مشيئته» (الموسوعة السياسية مادة دكتاتورية)، وهذا المفهوم متطابق مع =

وقد وجدت أسباب ساعدت في نموه، وبررت لوجوده، ودافعت عنه، ودعمته حتى وصل إلى هذا الحد المزري في الأمة .

ومن هذه الأسباب:

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- انتشار عقيدة الإرجاء والجبر ـ كما سبق ـ من خلال الصوفية والأشاعرة والماتريدية، وهاتان العقيدتان لهما تأثير كبير في ظهور روح الاستسلام للظلم، وتهوين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالإرجاء يبرر الطغيان ويعتذر له.

٣- دعم القوى الاستعمارية الأجنبية، والتي من مصلحتها بقاء الأمة الإسلامية تحت سلطة الأنظمة الاستبدادية، وهذا الدعم لا تكاد تخطؤه العين، ولا يزوغ عنه الفكر.

= «مفهوم الشمولية» إلا أن الشمولية استعملت كثيراً للدكتاتورية التي تفرض نمطاً فكرياً محدداً كما فعلت الفاشية والنازية والشيوعية.

ومن المفاهيم الحديثة «**مفهوم التسلطية**» وهذا المفهوم مرتبط بمفهوم الدولة القومية الحديثة بحيث «تخترق المجتمع المدني بالكامل، وتجعله امتداداً لسلطاتها، وتحقق بذلك الاحتكار الفعال لمصادر القوة والسلطة في المجتمع» (الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر ص/ ٨٣).

ثالثاً: الجمود والتقليد:

ولهذا وقفت الدولة العثمانية موقفاً سلبياً من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، والعلامة «الشوكاني»[(١)]، والشيخ الآلوسي وغيرهم، لأن علماء الدولة يعتمدون اعتماداً كاملاً على المذهب الحنفي، وهو من أقوى المذاهب منعاً للاجتهاد وأكثرها تعصباً، وأبعدها عن الواقعية لكثرة الافتراضات فيه، وقد زاد الأمر سوءاً اعتمادهم على المذهب الماتريدي الكلامي في العقيدة، وعلى التصوف الغالي في السلوك.

وهذه الأمور الثلاثة (التقليد، والكلام، والتصوف) أحكمت غلق الباب في إمكانية عمل تجديدي من داخل المشيخة العلمية والسلطة السياسية في الدولة العثمانية.

ولكن التربية الفكرية الجامدة التي نشأ عليها العلماء

---

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، ولد بهجرة شوكان ـ من بلاد خولان ـ سنة ١١٧٣هـ ١٧٦٠م، نشأ بصنعاء، وولي قضائها، ومات حاكماً بها، وكان يرى تحريم التقليد، له (١١٤) مؤلفاً، منها: «نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار» و«فتح القدير» و«إرشاد الفحول». الأعلام (٦/ ٢٩٨).

والحكام منعت الدولة من بناء مشروع سياسي إصلاحي يعتمد على الكتاب والسنة في الأهداف والآليات ليكون نموذجاً عالمياً تهتدي به الأمم الأخرى .

لقد كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي يشهد صعود الليبرالية في أوروبا، وقد تمكنت من الوصول للحكم في أغلب القارة الأوربية، وقد زادت حدة العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، وبدأت تظهر في الأمة علامات الانبهار بالغرب ومنجزاته الحضارية، وأمام هذا التحدي وقف علماء الكلام والتصوف عاجزون عن إحداث حركة تجديدية، وعمل إصلاحي شامل للأمة مع أنهم متمكنون من منابر التوجيه والتأثير، ولهم صلة قوية بالسلطان العثماني، وولاته الإقليميين، ولكن الخلل العقدي، والتعلق بالدنيا، والتربية الفكرية الجامدة كان لها ابلغ الأثر في تكبيلهم وتقييدهم عن التجديد والإصلاح .

وهذا ما يؤكد أن أهل السنة والجماعة هم أقدر الناس على الاجتهاد والتجديد المنطلق من الوحي الرباني، وذلك إذا التزموا بالسنة والجماعة حقيقة وليس ادعاءً.

رابعا: القوى الاستعمارية:

تعود العداوة العميقة بين أوروبا النصرانية والبلاد الإسلامية إلى الاختلاف الديني، وهذه حقيقة قررها القران الكريم ويشهد بها التاريخ والواقع، يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[البقرة:٢١٧]، ولهذا وقعت الحروب الصليبية القديمة والحديثة.

وعندما تخلت أوروبا عن النصرانية كدين لا هوتي، واعتنقت الفكر الليبرالي المادي العلماني بقيت معها «روح التعصب الصليبية»، وهذا ما يفسر التعامل الصليبي لأوروبا مع البلاد الإسلامية مع أنها دول علمانية مادية ملحدة .

وقد كانت البدايات الأولى للاستعمار في حركة الكشوف الجغرافية التي لبست ثوب العلم والاكتشاف، ورافق ذلك الحملة العسكرية التي تهدف إلى تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس.وقد انطلقت طلائع الاستعمار من روح صليبية حاقدة على الإسلام.

وقد كان الاستعمار هو السبب المباشر لدخول «الليبرالية»

للبلاد الإسلامية حيث قام بإلغاء الشريعة الإسلامية من الحكم، ونظّم الحكم بالطريقة الليبرالية المعتادة في أوروبا، فجعل الحكم نيابي، وبنى الدستور بما يوافق العقل، وفتح مجال الحريات الشخصية، ونمّى الطبقة الوسطى وفتح لها مجالات الاستثمار الحر دون تقييد.

ويمكن الإشارة إلى جهود الاستعمار في فرض الليبرالية في العالم الإسلامي من خلال ما يلي:

١- إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية، واستبدال القوانين الوضعية بها، وذلك من خلال حكومة نيابية دستورية على النمط الغربي.

٢- القضاء على التعليم الإسلامي، وتغيير مناهجه، وبناء المدارس الأجنبية، والمدارس التنصيرية في بلاد المسلمين بغرض التأثير على أبناء المسلمين ليسهُل تقبل الأفكار الليبرالية، وتكسر الحواجز والعوائق دونها.

٣- القيام بإبراز الطوائف والمذاهب غير الإسلامية، باسم «حقوق الأقليات»، وهذا العمل وغيره يبدو غطاؤه الظاهر حماية الحريات ونبذ الطائفية والتعصب، ولكنه يبطن أمراً آخر وهو إبراز هذه الطوائف، وتوليتهم على المسلمين،

وإضعاف الروح الدينية في المجتمع الإسلامي.

٤- تكوين جيل يحمل الفكر الليبرالي من أبناء المسلمين، وقد تم ذلك من خلال البعثات التعليمية، وبناء الجامعات المؤسسة على هذا الفكر، وجلب المستشرقين لها، ليكونوا أساتذة ومعلمين للجيل الجديد.

* * *

مظاهر الليبرالية في العالم الإسلامي

أولاً: الليبرالية في الحكم والسياسة:

دخلت الليبرالية إلى البلاد الإسلامية بشكل تدريجي وقد بدأ ذلك في أواخر عهد الدولة العثمانية التي كان لها دور كبير في المحافظة على ديار الإسلام، والحكم فيها بالشريعة الإسلامية في الجملة.

ولكن الدولة العثمانية رسخت الانحراف العقدي من خلال تبني الإرجاء والتصوف، وأهملت الشورى والمشاركة السياسية، وهذا ما جعل الدولة والمجتمع بحاجة ماسة للإصلاح، وقد كان هذا أثناء صعود الدول الأوروبية وقيام حركات التحرر بعدد من الثورات ضد العهد القديم مما نتج عنه تغير كبير في الأنظمة السياسية، والتركيبة الفكرية والاجتماعية في أوروبا.

في هذه الأثناء بدأت المطالبة بالإصلاح في الدولة العثمانية، ولكن عملية الإصلاح لم تتم بالأسلوب الصحيح، حيث تم ذلك على الطريقة الأوربية. وقد كانت البداية غير مقصودة لتطبيق الليبرالية كنظام سياسي في الدولة، ويمكن

تتبع عملية تسلل الليبرالية من خلال رصد بدايات التأثر بالنظام الليبرالي ومراحله متدرجاً منذ التقليد الشكلي للأنظمة الغربية في أواخر الدولة العثمانية وإلى مشروع الشرق الأوسط الكبير ومنتدى المستقبل في واقعنا المعاصر، وذلك من خلال ما يلي :

١ - عهد التنظيمات :

بدأ عهد التنظيمات عندما شعرت الدولة العثمانية بالوهن والضعف الشديد في حين أن أوروبا قد أثبتت تفوقاً قوياً في الميدان العسكري والسياسي والعلمي، وهذا ما جعل الدولة العثمانية تفكّر في إيجاد طريقة تتمكن بها من اللحاق بالدول الأوروبية في التقدم الصناعي والإداري. وقد كان الخلل في هذه التنظيمات هو بناؤها على النموذج الغربي، وكان الواجب تحريك العقلية الإسلامية للاختراع والإبداع حسب الحاجة، وما يناسب الدولة، وتوسيع الإصلاح ليشمل تجديد الدين وتنقيته من شوائب الإرجاء والتصوف، وفتح باب الاجتهاد وغيره .

لم تكن هذه التنظيمات تطبيقاً للمذهب الليبرالي، لكنها تشير إلى بدايات التأثر بالغرب، وتدل على بداية منهجية

جديدة في التعامل مع منجزات الغرب السياسية والاجتماعية والثقافية .

فلم تكن المشكلة في نظم عسكرية أو إدارية جديدة لكنها كانت في أساس جديد بدأ يدخل في الأمة يتمثل في تلقي هذه النظم دون تفريغ لها من مضمونها الفكري، لأنها أخذت بانبهار وتعظيم، ويقف وراء إدخالها بهذا الشكل أقوام منحرفون يعملون في خفية وسرية تامة وهم (حزب تركيا الفتاة)، وكان ذلك بغفلة ظاهرة من السلاطين والعلماء وعموم الأمة المسلمة .

وقد أصبحت هذه التنظيمات وخاصة ما يتعلق بالنظام النيابي والحكومة الدستورية قضية أساسية للمعارضة الليبرالية للدولة العثمانية[1]، وللدول الأوربية الاستعمارية كما حصل في الحرب الروسية في عام ١٨٧٧م عندما ضغطت الدول الأوربية على العثمانيين لإعلان الدستور .

٢- المنهج التوفيقي بين الإسلام والحضارة الغربية الليبرالية: نشأ في عهد التنظيمات السابق، وما صاحبه من

---

(١) المعارضة الليبرالية بدأت بجمعية تركيا الفتاة ثم الاتحاد والترقي وسيأتي الكلام عنها ص / ٣٣٤.

دعوة للإصلاح على النمط الأوربي نخبة من الأساتذة والضباط وموظفي الدولة العثمانية تبنوا الإصلاح، واقتنعوا أن هذا الإصلاح لن يتم إلا بتبني بعض صيغ المجتمع الأوروبي[١].

وقد عمت هذه الحركة الفكرية الجديدة سائر ولايات الدولة من خلال بيانات الإصلاح، والقوانين التي نتجت عنها، ومن خلال الولاة العثمانيين المقتنعين بهذه الفكرة ممن شغل مناصب في الولايات العربية وغيرها.

ولكن هذه الحركة لم تبدأ منفصمة عن الإسلام، وهذا ما استدعى النظر في الإصلاحات الجديدة المأخوذة من أوروبا ومحاولة ربطها بأحكام الإسلام وعقائده.

فقد مثل هذه الحركة من الجانب الفكري «ضياء باشا»، و«نامق كمال»[٢]، وهم ممن اطّلع على الآداب الأوروبية

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة ص/ ٨٩.

(٢) كاتب وشاعر ووطني تركي. ولد سنة ١٨٤٠م. يعتبر أحد أكثر الكتاب ثورية في عصره، وضع عدداً من الروايات التاريخية، والسير، وترجم بعض الآثار الأدبية الأوروبية. كان لكتاباته أثر كبير في تطعيم لأدب التركي بالعناصر الغربية. من أشهر أعماله: مسرحية «وطن» توفى سنة ١٨٨٨م. معجم أعلام المورد ص/ ٣٦٩.

وأعجبوا بها وشكلوا حزباً سياسياً وهو «حزب الشباب العثماني»[١] وحاولوا الربط بين الفكر الليبرالي والإسلام.

وقد اجتهدوا في الربط بين الإسلام والمفاهيم الليبرالية الجديدة مثل مفهوم الحرية، والمجالس النيابية، والمواطنة، وتحرير المرأة وغيرها.

وفي مصر كان الطهطاوي ممن تشرب الأفكار الليبرالية وأعجب بها إعجاباً كبيراً، وقد اطلع في رحلته إلى باريس على الفكر الليبرالي، وقرأ كتب التاريخ والفلسفة والفكر السياسي باللغة الفرنسية،وقد تعرف على فكر فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم أثناء إقامته هناك. وقد أسس منهجية جديدة وهي التوفيق بين مبادئ الإسلام، ومبادئ القانون الطبيعي التي ترتكز إليها قوانين أوروبا الحديثة[٢]. وهذا يتضمن القول بإمكان تفسير الشريعة الإسلامية تفسيرا يتفق مع حاجات العصر وظروفه الجديدة. وهكذا أصبح يشرح

---

(١) نشأ الحزب أولاً في اسطنبول ثم نقل مركزه إلى باريس، وأصدروا جريدة لكن الحزب انحل بعد ١٨٧١م عندما سمح لزعمائه بالعودة من المنفى. انظر: الفكر العربي في عصر النهضة ص/ ٩١.

(٢) انظر المرشد الأمين ص/ ٣٨

المفاهيم الليبرالية بمصطلحات ومفاهيم شرعية، ويفسر المفاهيم الشرعية تفسيراً عصرياً يتوافق مع الحضارة الغربية. فالوطنية في كلامه لا تختلف عن مفهومها الليبرالي، وهي أن الرابطة بين أفراد البلد المعين هو اجتماعهم في وطن محدد، وأن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات ولا فرق بينهم، وبهذا يستوي أهل الذمة وسائر المسلمين، ثم يسقط على هذا المفهوم «محبة الدين».

وممن تأثر بهذه المنهجية التوفيقية ـ أيضاً ـ «خير الدين التونسي»[(١)] الذي يقول عن الدول الأوروبية: «وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي وتسهيل طرق الثورة»[(٢)].

---

(١) خير الدين «باشا» التونسي. الوزير، المؤرخ، من رجال الإصلاح، شركسي الأصل. ولد عام ١٢٢٥هـ ـ ١٨١٠م.
قدم تونس صغيراً. فتعلم بعض اللغات، وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة، وبسعيه أعلن دستور المملكة التونسية. ثم عزل عن الوزارة، فانتقل إلى الأستانة، فنصب عضواً في مجلس الأعيان. توفى بالأستانة عام ١٣٠٨هـ ـ ١٨٩٠م. له كتاب: (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك). الأعلام (٢ / ٣٢٧).

(٢) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص/ ٩٨.

وقد استمرت هذه المدرسة التوفيقية، واختلف أتباعها في مدى قربهم أو بعدهم عن «الفكر الليبرالي» الذي بدأ يدخل إلى البلاد الإسلامية وتتسع دائرة نفوذه.

وممن ينبغي الوقوف عنده في هذا المجال «محمد عبده»[1]، فقد كان صاحب مدرسة مستقلة تخرج منها عدد من الليبراليين في البلاد الإسلامية.

ولهذا وقف الحاكم الانجليزي لمصر كرومر مع محمد عبده وسانده في كثير من مشاريعه، ومن ذلك أنه احتضنه عندما اصطدم بالخديوي عباس حتى أصبح هو سنده في كل

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني. مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح. ولد في (شنرا) من قرى الغربية بمصر عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م. ونشأ بمحلة نصر (بالبحيرة). تعلم بالجامع الأحمدي (بطنطا) ثم بالأزهر الشريف. تولى تحرير جريدة (الوقائع المصرية)، ولما احتل الانكليز مصر ناوأهم وشارك في مناصرة الثورة العرابية. فسجن ثلاثة أشهر، ثم نفي إلى الشام، وسافر إلى باريس فأصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) ثم عاد إلى مصر، فعين قاضياً، فمستشاراً في محكمة الاستئناف، فمفتياً للديار المصرية. توفي بالإسكندرية عام ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م، ودفن بالقاهرة.

من كتبه: (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه، و(رسالة التوحيد)، و(الرد على هانوتو)، وترجم رسالة (الرد على الدهريين). الأعلام (٦ / ٢٥٢).

ما استهدفه من مشاريع تطوير الأزهر، ومدرسة تخريج القضاة.

وقد ذكر كرومر في كتابه «مصر الحديثة»: أنه منح محمد عبده خلال إقامته بمصر كل ما يملك من عون وتأييد، وأنه (محمد عبده)لم يكن يستطيع أن يحتفظ بمنصبه في الإفتاء لولا هذا التأييد.

ويقول «كرومر»: «إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند (مؤسس جامعة عليكرة)». ثم يقول: «إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبي»(١). وقد بين المستشرق (جب) وهو أحد مستشاري وزارة الخارجية الانجليزية أهمية الحركات التجديدية التي تهدف إلى تأويل الإسلام بما يتوافق مع الحضارة الغربية، وقد خص حركة

(١) الاتجاهات الوطنية ص ٢/ ٣٠٧.

محمد عبده الإصلاحية بمزيد من الإشادة والاهتمام[(١)].

ولاشك أن المنهج التوفيقي الذي اتبعه محمد عبده وتلاميذه جعلهم يستوردون النظم الغربية، والمفاهيم الليبرالية ويحشرونها في الإسلام، فالديمقراطية - عندهم - هي الشورى، والرأي العام هو الإجماع، وهذا ما جعل قاسم أمين يؤصل لسفور المرأة وخروجها في كتابة (تحرير المرأة)، ثم تبرجها وتقليدها للغربيات في كتابه (المرأة الجديدة)، ولهذا قال جب «كان تلاميذه (محمد عبده) الحقيقيون من صفوف العلمانيين»[(٢)].

وقد استغل كرومر هذا الاتجاه ليقوم بترسيخ الليبرالية في الدولة الجديدة التي يقوم الاحتلال ببنائها وقد سماها كرومر (مصر الحديثة)، فقد أكد للمصريين «أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية»[(٣)].

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢١١-٢٢١.

(٢) دراسات في حضارة الإسلام ص/ ٣٣٠.

(٣) الاتجاهات الوطنية ١/ ٢٦١.

وهذا ما تم بالفعل من خلال مدرسة القضاة، والمحاكم الشرعية، والتي جعلت تحكيم الشريعة خاصاً بالأحوال الشخصية، وبقية الأمور جعلته قانوناً مدنياً مأخوذاً من القوانين الأوربية، وقد أنجز هذا المشروع على يد محمد عبده بالتعاون مع كرومر[1].

وقد أجاد «كرومر» إدارة هذه المدرسة، ولم يخرج الاستعمار من مصر إلا بعد أن سلّم الحكم لحزب ليبرالي زعماؤه من تلاميذ محمد عبده، وهو حزب الوفد.

وقد كان «عبد الرحمن الكواكبي»[2] من أقوى رواد هذه المدرسة في توضيح خطورة الاستبداد السياسي، والمطالبة

---

(١) انظر في هذا الموضوع: الفكر الإسلامي دراسة وتقويم ص/ ٣٠، محمد عبده (العقاد) ص / ١٠٩، العلمانية ص/ ٥٧٦-٥٧٧.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي أحمد بن مسعود الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي، رحالة، من الكُتاب الأدباء، من رجال الإصلاح الإسلامي، ومن كبار رجال النهضة الحديثة، ولد بحلب عام ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م وبها تعلم، وأنشأ فيها جريدة (الشهباء) فأقفلتها الحكمة، ثم أنشأ جريدة (الاعتدال)، أسندت إليه مناصب عدة، ثم حنق به أعداء الإصلاح فسعواب، فسجن وخسر جميع ماله، فرحل إلى مصر، واستقر في القاهرة حتى وفاته عام ١٣٢٠هـ ١٩٠٢م، من كتبه: «أم القرى»، و«طبائع الاستبداد». الأعلام (٣/ ٢٩٨).

بالحرية السياسية من منطلق علماني بحت.

فهو يقول: «دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء»(١). وهكذا يتبين أن الحريات التي يدعو لها الكواكبي في المجال السياسي هي حريات منفصلة عن الدين، وهذا يدل على مدى القرب بين أصحاب المدرسة التوفيقية العصرية والليبراليين الذين طالبوا بنبذ الشريعة الإسلامية وإقصائها من الحكم.

وقد ظهر شيخ آخر ينتمي إلى الأزهر أكد على أن الإسلام لا يشتمل على منهج في الحكم، ودعا للفصل التام بين الدين والسياسة، وهو علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم، وقد اعتمد فيه على المستشرقين ونتاجهم الفكري(٢).

وهذا يدل على الدور الخطير الذي قامت به هذه المدرسة

---

(١) طبائع الاستبداد ص/ ١١٢-١١٣.

(٢) انظر حول هذا الكتاب بتوسع: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم (محمد الخضر حسين)، والاتجاهات الوطنية ٢/ ٨٦ وما بعدها، العلمانية ص/ ٥٨٢.

التوفيقية في ظهور التيار الليبرالي،لأن هذه المدرسة تُعتبر عند الناس من العلماء والشيوخ الشرعيين.

وقد سوّغ هؤلاء الأفكار الليبرالية، وأعطوها لباساً إسلامياً، وتبريراً شرعياً، وقد توسع فيها الليبراليون بعد ذلك إلى مستوى العداء الصريح للإسلام.

ولا شك أن أولئك الشيوخ لم يكونوا يريدون الوصول لهذه الدرجة، ولكنهم وفّروا البوابة والمدخل لها.

ولهذا فهم المسؤولون عن إلغاء تحكيم الشريعة الإسلامية لأنهم لم يكونوا يرون بأساً بالقانون المدني(١)، وصرح بعضهم بفصل الدين عن الدولة(٢)، وشارك البعض(٣) في إعداد هذه القوانين والتي أصبحت طاغوتاً وحكماً بغير ما أنزل الله تعالى.

---

(١) مثل محمد عبده وتعاونه مع كرومر في مدرسة القضاة وإنشاء مجلس شورى القوانين انظر: الفكر الإسلامي دراسة وتقويم ص/ ٣٠، ومحمد عبده (العقاد) ص/ ١٠٩، والعلمانية ص/ ٥٧٧.

(٢) مثل الكواكبي وعلي عبد الرازق وقد تقدم ص/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) مثل عبد الرزاق السنهوري انظر حول مشروعه: الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية (الأشقر).

وقد فتح محمد عبده في موقفه من الآخر (الكافر)[١]، باب الليبرالية فيما يتعلق بدعوى التسامح الديني الذي يزيل الفروق بين الأديان، ويرفض تكفير أهل الكتاب بحجة التسامح مع الآخر.

٣-الجمعيات والأحزاب السياسية الليبرالية:

ظهر في أواخر الدولة العثمانية جمعيات وأحزاب سياسية سرّية تتلقى الدعم والمساعدة من الدول الاستعمارية التي كانت تتربص بالدولة، وتَستعمل هذه الأحزاب للضغط عليها بما يوافق مصالحها.

وقد أنشأ كثيراً من هذه الجمعيات نصارى العرب في بلاد الشام[٢]، كما وُجدت أحزاب تجمع بين بعض المسلمين

---

(١) نص في فتواه الموجودة في تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٦٦٦ على عدم تكفير أهل الكتاب، ولا يزال هذا الرأي لدى المدرسة العصرية إلى اليوم.

(٢) مثل: جمعية العربية الفتاة، وجمعية بيروت لفارس نمر، والحزب القومي السوري لأنطوان سعادة، وحزب البعث لميشيل عفلق. وانظر حول هذه الجمعيات والأحزاب: كتاب القومية العربية في ضوء الإسلام. صالح العبود، والاتجاهات الوطنية ٢/ ١٠٢، والعلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص/ ١٩٠- ١٩١

والنصارى[١]، وقد وجد بعض هذه الأحزاب لأفكار سياسية وقتية ثم انتهى[٢]. ومن أبرز هذه الجمعيات التي كان لها أثرًا:

جمعية الاتحاد والترقّي: وهي أول جمعية منظّمة تعتمد على الفكر الليبرالي بمفهومه العام، وترجع بداية ظهور هذه الجمعية إلى جماعة (الأحرار) التي تكونت في عهد السلطان عبد العزيز، وأنشأت في عام ١٨٦٤م مجلة في لندن باسم «حريت»[٣].

ومن خلال هذه الحركة تمّ التحول من الحكم بالشريعة

---

(١) مثل الحزب الوطني: أول حزب سياسي في مصر، وهو حزب علماني يجمع مسلمين ويهود ونصارى برابط الوطنية المصرية. انظر: الاتجاهات الوطنية ١/ ١٥٤، وهذا الحزب وقف ضد الاستعمار، بينما وقف الحزب الوطني الحر مع الاستعمار، وهو حزب علماني أنشأه النصارى الشوام في مصر وتمثله مجلة المقتطف. انظر: المصدر السابق ١/ ٩١

(٢) مثل: حزب اللامركزية العثماني، وهو حزب سياسي يهدف إلى تقليص سلطة الدولة العثمانية مع البقاء ضمن إطار الدولة العام، ولكن مع إدارة محلية مستقلة، وقد كان هذا الحزب ردة فعل للقومية الطورانية التي أتى بها الاتحاد والترقي، ولكن هذا المشروع انتهى مع سقوط الخلافة وتفككها. انظر: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص/ ١٩٠-١٩١

(٣) انظر: تركيا الفتاة ص/ ٣٩-٤٠، نقلاً عن المصدر السابق ص/ ٣٠.

الإسلامية، ـ مع وجود التفريط والمخالفة ـ، إلى الحكم بالطاغوت والتشريع بغير ما أنزل الله تعالى.

وقد كان وراء هذه الحركة يهود الدونمة في سلانيك، فمن خلال محافل الماسونية تكونت هذه الحركة الليبرالية، وأصبح كثير من أعضائها من اليهود الماسون.

- إسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة، وتعطيل الحكم بالشريعة الإسلامية، وتغيير نظام الحكم الإسلامي، وتحويله إلى نظام جمهوري، يحكم بقانون مدني بشري[٣].

- محاربة الإسلام، وعقيدته، وشريعته، وآدابه، وحضارته، والانخلاع منه، والارتداد عنه، إلى عقائد الفكر الغربي وأدابه وحضارته[٤].

- تنفيذ خطط اليهود والدول الصليبية، والتفريط بكثير من

---

(٣) انظر: تفصيل ما قام به كمال أتاتورك: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة (مصطفى صبري)، وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، والاتجاهات الوطنية ٢/ ٣١-٩٨، والشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد ص/ ٤٨-٥٧، والمخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ١٧٤ وما بعدها، والصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ص/ ٣٦، والعلمانية ص/ ٥٦٣-٥٧٣ .

(٤) انظر: المصادر السابقة .

أجزاء الخلافة العثمانية، وتركها نهبة لاستعمار الدول الصليبية[٥]، وإقامة دولة قومية تركية على غرار الدول القومية في أوروبا تعتمد على قانون مدني يشرعه النواب، وهذا ما يعتبره مصطفى كمال لائقاً بالأمة العصرية في تشريعها وقضائها، وقد صرح وزير العدل في دولته «أن الشعب التركي جدير بأن يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله، وقد كان كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة قال المقدسة، فأما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا

---

(٥) كانت خطة بريطانيا وفرنسا ترفض السيطرة الكاملة على الدولة العثمانية مع سقوطها مثل ألمانيا في أيدي الحلفاء خوفا من روسيا ويعد دخول حكومة الاتحاد في الحرب العالمية الثانية بجوار ألمانيا ليس له أي معنى أو فائدة سوى تنفيذ مخطط يهود سلانيك الذي تسيطر عليه محافل الألمان الماسونية، وبالتالي تسقط الدولة في يد الحلفاء، وقد فرط الاتحاديون في أجزاء من بلاد المسلمين خيانة ولؤماً، بقول الجنرال جواد رفعت أتلخان «إن طرابلس الغرب (ليبيا) قد وقعت بين مخالب الايطاليين بمؤامرة خبيثة دبرها الماسوني اليهودي (متر سالم) الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، حيث ذهب إلى ايطاليا، وقابل رئيس بلدية روما اليهودي (متر سالم) لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى استانبول بحجة التعمير والإصلاح»، أسرار الماسونية ص / ٥٩ .

قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن»[١]،

أما البلاد الإسلامية الأخرى التي تركتها جمعية الاتحاد نهبا للاستعمار فقد ألغى الاستعمار فيها الحكم بالشريعة وأتى بقانون وضعي يقر من خلال حكومة نيابية دستورية على النموذج الغربي.

- الارتباط القوي باليهود والماسونية، وتلقي الدعم المادي والسياسي منهم، والتآمر معهم على تدمير عقائد المسلمين وبلادهم[٢]، وهذه خيانة عظمى لا تبررها دعوى تغيير الأنظمة المستبدة، لأن هؤلاء الليبراليين أصبحوا فيما بعد مستبدون إلى درجة التحكم في هيئة اللباس والمظهر الخارجي.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: حاضر العالم الإسلامي ٣/ ٣٣٦

(٢) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد ص/ ٤٩،٦٩، وتاريخ الدولة العثمانية ص/ ١٩٧، وأسرار الماسونية (كله) والذئب الأغبر ص/ ٢٩، وتركيا الفتاة ص/ ٢٠٠، القومية والغزو الفكري ص/ ٢٦٩-٢٧٠، صحوة الرجل المريض ص/ ٢٤٢ وما بعدها، والشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، ص/ ٣٤ - ٣٥.

حزب الوفد[١]:

حزب الوفد هو امتداد لأول حزب ليبرالي تكون في مصر أثناء الاحتلال البريطاني، وهو حزب الأمة[٢]، وقد التأم حزب الأمة بين جماعة من كبار الملاك[٣] وآخرين من

---

(١) أبرز أعضاء الوفد: مصطفى فهمي، سعد زغلول، أحمد لطفي السيد، مصطفى النحاس، وغيرهم. وقد ذهب الوفد للتفاوض مع بريطانيا لنيل الاستقلال.

(٢) تكون حزب الأمة قبل الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد الحرب انتهى حزب الأمة ليبدأ حزب الوفد ثم الأحزاب المنشقة عنه كحزب الأحرار الدستوريين وغيره «والذي يراجع أسماء رؤوس حزب الوفد وزعمائه يجد معظمهم من أساطين حزب الأمة، ويكفي أن تعرف أن محمود سليمان باشا رئيس حزب الأمة قد أصبح رئيساً للجنة الوفد المركزية، وأصبح أبنه محمد محمود باشا، وكاتب الحزب الأول أحمد لطفي السيد عضوين مؤسسين فيه، وأن اثنين من الأعضاء الثلاثة الذين قابلوا «وبخت» في اليوم الذي ظل المصريون يحتفلون به من بعد سنين طوالاً كانا من حزب الأمة، وهما علي شعراوي باشا، وعبد العزيز فهمي باشا، وأما العضو الثالث ـ وهو سعد زغلول ـ فقد كان معروفاً هو وأخوه فتحي زغلول بميلهما الشديد لهذا الحزب ومعاضدتهما له، ولكن منصبهما الرسمي هو الذي منعهما من أن يكونا عنصرين عاملين بصفة رسمية ظاهرة» الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٤٢.

(٣) مثل محمود سليمان، وحسن عبد الرزاق، وحمد الباسل، وفخري عبد النور، وسليمان أباظه، وعبد الرحيم الدمرداش، وعلي شعراوي، وغيرهم. انظر: الاتجاهات الوطنية ١/ ٩٤-٩٥.

المثقفين وعلى رأسهم «أحمد لطفي السيد»[1]، وقد كان المثقفون أصحاب مذهب سياسي واجتماعي وهو (الليبرالية)، وحاولوا التوفيق بينه وبين رغبات هؤلاء الأعيان.

ويدعو الحزب إلى الوطنية الضيقة على أساس لا ديني، ولهذا طالب بإحياء الفرعونية، وتعظيم التراث الفرعوني على أساس وطني، كما دعوا إلى اللهجة العامية، وأن تعلم اللغة العربية لا مبرر له. وقد كان أحمد لطفي السيد هو«أبو

---

(١) أحمد لطفي بن السيد أبي علي، سمي (بأستاذ الجيل) رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة مع أنه من الدعاة المعروفين للعامية !!، ولد في قرية (برقين) بمركز (السنبلاوين) بمصر عام ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧٠م، عمل محامياً، وشارك في تأسيس (حزب الأمة) عام ١٩٠٨م، فكان أمينه، وحرر صحيفته اليومية (الجريدة)، كان من أعضاء الحزب الوطني القدماء، ومن أعضاء (الوفد المصري)، ثم تحول إلى (الأحرار الدستوريين)، عين مديراً لدار الكتب المصرية، فمديراً للجامعة عدة مرات، ثم وزيراً للمعارف، والداخلية والخارجية، فعضواً بمجلس الشيوخ، ثم عين رئيساً لمجمع اللغة العربية واستمر فيه إلى وفاته، تأثر بملازمة جمال الدين الأفغاني مدة في اسطنبول، وبقراءة كتب أرسطو، وهو أول من سهل للفتيات دخول الجامعة في بدء إنشائها، توفي بالقاهرة سنة١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م. من كتبه: «المنتخبات» و«تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع». الأعلام (١ / ٢٠٠) .

الليبرالية المصرية» في تلك الفترة، وأستاذاً لعدد كبير من الليبراليين، ولهذا سمي «أستاذ الجيل»، وقد كانوا حلفاء مخلصين للاحتلال الإنجليزي، ويعطون مداهنتهم للحاكم الإنجليزي صفة العقلانية !

وقد عرف حزب الأمة بعلاقته المميزة مع اللورد كرومر (الحاكم الانجليزي الفعلي لمصر)، وأنه إنجليزي الميول، وتبنيه لوجهة النظر الغربية من الناحية الفكرية والسياسية.

وقد هاجم الحزب فكرة الوحدة الإسلامية، واعتبرها فكرة خيالية، لأن طريق النهضة في تصورهم يكون بتكوين دولة قومية كما هو الوضع في أوروبا بعد الثورة الفرنسية.

وكانت حكومة الوفد ـ التي بقيت كل مدتها تحت الاحتلال ـ حكومة ليبرالية في تصورها للحكم وآليات تنفيذه، وهو التصور الذي وضعه المحتل وقبلوا به. فقد كان «سعد زغلول»[1] صديقاً مخلصاً للإنجليز، ولعموم الغربيين،

---

(١) سعد بن إبراهيم زغلول، زعيم سياسي مصري، وخطيب مؤثر، ولد في (إبيانة) من قرى (الغربية) بمصر سنة ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م، نشأ يتيماً، فتعلم في الكُتاب ثم تعلم في الأزهر الشريف، اتصل بالشيخ جمال الدين الأفغاني فلازمه مدة، واشتغل بالتحرير في جريدة (الوقائع) المصرية مع الشيخ =

والذي يقرأ رسائله إلى الرئيس الأمريكي «ويلسون» يدرك مدى الخنوع والتذلل. لقد جعل الاحتلال صراع الأحزاب السياسية حول الدستور، والحكومة النيابية لعبة وشغلا لهم عن جهاده وبناء الأمة بناء مستقلا صحيحاً. ثم سلم الحكم لجهة مأمونة (حزب الوفد) من حيث تبنيها تصورات الفكر الغربي، وهذا واضح في أفكار أتباع الحزب[1].

٤- التحول الديمقراطي ومشروع الشرق الأوسط الكبير :

لم تعرف البلاد الإسلامية الليبرالية إلاّ من خلال دعاة التغريب، ولم يكن لمفاهيمها السياسية تطبيق في الواقع إلا عن طريق الاستعمار الغربي، وقد كانت فترة الاستعمار هي

= محمد عبده، شارك في الثورة العربية سنة ١٢٩٨هـ، فسجن شهوراً بتهمة المشاركة في جمعية سرية (قيل أنها تسعى لقلب نظام الحكم) ثم أفرج عنه مبرءاً، فاشتغل بالمحاماة، ثم اختير قاضياً فمستشاراً، تولى وزارة المعارف، فوكالة رياسة الجمعية التشريعية، طالب بالاستقلال فنفاه الانجليز إلى مالطة، ثم إلى جزائر (سيشل)، فأصبح اسمه رمزاً للنهضة القومية، تولى رياسة مجلس الوزراء، ورياسة مجلس النواب، توفى بالقاهرة سنة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م. الأعلام (٣/ ٨٣)، وموسوعة عظماء ومشاهير ص/ ٢٤.

(١) انظر حول ما تقدم: الاتجاهات الوطنية ١/ ٩٤-٩٥، ١٠٥، ١٣٦، ١٥٢، ٢/ ٣٨٩-٤٢٩.

«العصر الذهبي لليبرالية» في كل البلاد الإسلامية التي دخلها الاستعمار[١].

و«مشروع الشرق الأوسط الكبير» مشروع أمريكي، ولكن الاتحاد الأوروبي وخاصةً ألمانيا وفرنسا[٢] كان له مشاركة فعالة لاسيما وأن الولايات المتحدة عرضت المشروع على

---

(١) لا يعني وصف هذه الفترة بالعصر الذهبي أنها كانت تطبيق فعلي لليبرالية، فالليبرالية لم تطبق بصورة كاملة في البلاد الإسلامية، وكان الاستعمار من اكبر المنتهكين للديمقراطية، والمعطلين لها، وذلك عندما تخالف مصالحه السياسية، ولكن هذه الفترة كانت من أهم فترات فرض الليبرالية على العالم الإسلامي في التاريخ المعاصر، ولعل استبداد حكومة الاتحاد في تركيا شاهد على هذه الحقيقة .

(٢) اتفقت وجهة النظر الأمريكية والأوروبية فيما يتعلق بهذا المشروع، ويمكن تتبع ذلك من خلال المبادرة الألمانية الواردة في خطاب وزير الخارجية الألمانية يوشكا فيشر أمام مؤتمر ميونيخ الأربعين حول السياسة الأمنية (٧ فبراير / شباط ٢٠٠٤م)، ونص المشروع الفرنسي- الألماني من أجل مستقبل مشترك مع الشرق الأوسط، ومشروع الاتحاد الأوروبي بشأن استراتيجية المشاركة مع منطقة الشرق الأوسط، ووثيقة «شراكة من أجل التقدم ومستقبل مشترك مع منطقة الشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا» وهي وثيقة لقمة الثمانية في الولايات المتحدة في ١١/ ٦/ ٢٠٠٤م، وانظر: مشروع الشرق الأوسط الكبير أعلى مراحل التبعية ص / ١٦٦ - ٢٢٦ . ويوجد فيه النصوص كاملة.

قمة الدول الثمانية الكبار[١]، وقد بدأ العمل بهذا المشروع من خلال «منتدى المستقبل»[٢].

---

(١) الدول الثمانية الكبار هي: أمريكا، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وايطاليا، واليابان، وروسيا، وكندا.

(٢) منتدى المستقبل: هو منتدى يهدف لبحث تطبيق الآليات التي قررتها قمة مجموعة الثماني بخصوص مبادرة «الشرق الأوسط الكبير» ويضم المنتدى قادة دول الثماني وقادة دول المنطقة، وممثلين عن المجتمع المدني ورجال الأعمال، والمنتدى-كما قال وزير الخارجية الأمريكية يوم الجمعة ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٤م- «مسعى للترويج لإصلاح سياسي واقتصادي»، وأطلقت فكرة المنتدى خلال قمة مجموعة الثماني في سي آيلاند بولاية جورجيا الأمريكية في يونيو ٢٠٠٤م. وقد استضافت المغرب الملتقى الأول لمنتدى المستقبل في ١١/ ١٢/ ٢٠٠٤م. ورغم استبعاد حضور الوفد الإسرائيلي فإن الرفض الشعبي لاحتضان المغرب لهذا المنتدى كان قويا، وقد اعتمد الرفض الشعبي على وعي لأهداف المنتدى الخفية لاسيما وأن الرأي العام الإسلامي يرفض كل مشروع مصدره الولايات المتحدة لما تمارسه من جور وعدوان على البلاد الإسلامية مع دعم غير محدود للاحتلال الإسرائيلي مما يشكل عقبة كؤد في طريق نجاح المشروع، وقد تم الاتفاق على أن يتم عقد الملتقى الثاني للمنتدى في البحرين، ولكنه فشل في تحقيق أغراضه. انظر حول أخبار المنتدى: وكالات الأنباء، والصحف المحلية والعالمية في تاريخ ١١/ ١٢/ ٢٠٠٤م، وموقع إسلام أون لاين - الأخبار - في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٤م.

أما أبرز مبادئ مشروع الشرق الأوسط الكبير[1]، فهي :

أولاً: تشجيع الديمقراطية (بمفهومهم !) .

ثانياً: بناء مجتمع معرفي.

ثالثاً: توسيع الفرص الاقتصادية.

أما الأهداف الحقيقية لمشروع الشرق الأوسط الكبير:

مشروع الشرق الأوسط الكبير مشروع له أبعاد سياسية واقتصادية، وينطلق من المنفعة الغربية بالدرجة الأولى، فالغاية تبرر الوسيلة حسب الرؤية المكيافللية الغربية، ولكنه يتذرع بالخوف على المصالح الغربية، ويتجمل بالحرص على الإصلاح وإشاعة الديمقراطية والحرية في العالم.

والمتابع للسياسة الغربية يجزم أن مصلحة المنطقة غير واردة في هذا المشروع، فالاستعمار البريطاني والفرنسي نهب ثروات الشعوب، واستعبد الناس وفق مصالحه الذاتية.

---

(١) يشمل الشرق الأوسط الكبير: الدول العربية، وباكستان، وأفغانستان، وإيران، وتركيا، وإسرائيل.

والأهداف الحقيقية لهذا المشروع يمكن بيانها من خلال ما يلي:

أولاً: إعادة ترتيب أوضاع المنطقة لتتقبل النموذج الليبرالي في الشأن السياسي (الديمقراطية)، والشأن الاقتصادي (الرأسمالية) لظنهم أن تطبيق الليبرالية في هذه البلاد الشرق أوسطية سيخفف الاحتقان الشعبي وبالتالي يفقد الإرهابيين (المجاهدين) التأثير على الشعوب الإسلامية في المنطقة.

ثانياً: تهيئة المنطقة للعولمة ودخول الشركات الغربية في أسواقها لزيادة الكسب، وحل مشكلة الفائض في الاقتصاديات الغربية، والبحث عن اليد العاملة الرخيصة .

ثالثاً: العمل على تطبيع العلاقات بين إسرائيل ودول المنطقة من خلال الاقتصاد والشراكة في حلف جديد غير مرتبط بهوية دينية أو قومية .

ثانياً: الليبرالية في المال والاقتصاد:

دخلت الليبرالية في اقتصاد الدول الإسلاميّة من خلال سيطرة الدول الرأسمالية الكبرى على الاقتصاد العالمي،

ودمج بقيّة الدول فيه، والسعي لجعل الدول الصناعية مركز حركة المال في العالم، والدول النامية أطراف وحقول تجارب لهذه الدول، وهذا ما جعل الدول النامية في حالة خضوع كامل لتصرفات الدول العظمى الاقتصاديّة.

وقد استعملت الدول الرأسمالية الصناعية منهجية قوية حققت لها استمرار التبعية الاقتصادية في البلاد النامية (ومنها البلاد الإسلامية)، والهيمنة الغربية.

ولهذا أصبحت البنوك المركزية في هذه البلاد بنوكاً ربوية بالإضافة للبنوك الأهلية المرتبطة بها، وأصبحت الأنظمة تصرح بإباحة الربا دون تحرج أو استدراك، وارتبطت مصالح الناس وأعمالهم التجارية بالنظريات الغربية مداً وجزراً، وأصبحت المناهج في الجامعات والمعاهد التجارية وغيرها تدفع بأفواج من نتائجها يؤمنون بهذه النظريات ويدافعون عنها، وهذه نتيجة طبيعية للتبعية الاقتصادية للنظام الرأسمالي العالمي.

ولهذا نجد أن البنوك الإسلامية ومنهجية الاقتصاد الإسلامي تعد أمراً استثنائياً لا تدخل في صلب الأنظمة

الاقتصادية التي تتبناها الحكومات في البلاد الإسلامية.
ومما يؤكد قوة الليبرالية في الاقتصاد في البلاد الإسلامية تلك الأعداد الكبيرة التي تدافع عن «العولمة» و«الانفتاح الاقتصادي» من المفكرين والمثقفين(١).

* * *

(١) مثلا علي حرب في كتابه «حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية» هذا مع أن حرب كان شيوعياً، ولكنه تحول ليبرالياً بعد سقوط الشيوعية!!، وبرهان غليون (انظر: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة)، ومئات الكتاب غير المشهورين، وكتاب الصحافة في البلاد الإسلامية.

دعوى الإسلام الليبرالي

تعود جذور التقريب بين الإسلام والليبرالية إلى القرن التاسع عشر حيث تفككت الدولة العثمانية، واحتلت أكثر البلاد الإسلامية، وظهرت فيه قوة الغرب المادية، وضعف البلاد الإسلامية، وبرز فيه السؤال الفكري الشهير «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟».

وقد تمت عملية التقريب بين الإسلام والليبرالية في أجواء من الهزيمة النفسية أمام الغرب المنتصر، والذي أسر عقول الكثير من أبناء المسلمين في تلك الفترة، وجعل المقارنة بالغرب محمدة ومنقبة، وخاصة أنه صدم تلك الأجيال بأنواع جديدة من المعارف والعلوم في زمن ضعف العلم وانتشار الجهل وجمود التفكير وظهور التقليد من جراء آراء الفرق الضالة، والتعصب المذهبي، والاستبداد السياسي الذي سبق الكلام عنه.

وقد حصل التقريب بين الإسلام والليبرالية من طرفين:

أحدهما: «الحركة التلفيقية» التي حصلت على يد محمد عبده وتلاميذه في التقريب بين الإسلام والحضارة الغربية

وهي المعروفة «بالحركة الإصلاحية»، وقد انتهت بتحول تلاميذ محمد عبده إلى الليبرالية الصرفة.

والثاني: «الاستعمار»، وخاصة بعد دخول الولايات المتحدة للهيمنة على المنطقة بعد خروج الاستعمار البريطاني والفرنسي منها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وظهور الشيوعية ممثلة في الاتحاد السوفيتي كتحدي جديد لليبرالية الغربية.

وقد استفاد الاحتلال والقوى الاستعمارية مما يسمى الحركة الإصلاحية وقام بتوجيهها لتحقيق أهدافه في إضعاف المفاهيم الإسلامية الصحيحة في النفوس والقضاء على الوحدة الإسلامية.

أولاً: المشروع الأمريكي لقضية الإسلام الليبرالي:

اهتمت الولايات المتحدة بتفسير الإسلام تفسيراً ليبرالياً منذ وقت مبكر، لأن ذلك يحقق كثيراً من المصالح الحيوية لهيمنتها، فهي تعلم أن إقصاء الإسلام تماماً من البلاد الإسلامية أمر مستحيل لقوة تأثيره وتعلق المسلمين به فوجدت في التبديل والتحريف له أنجح السبل للقضاء على فاعليته وتأثيره. ومن جهة أخرى فإن تفسير الإسلام وتأويله

تأويلاً ليبرالياً يقوي علاقة هذه البلاد وشعوبها بالحضارة الغربية وقيمها مما يضمن عملية استمرار الخضوع لها.

ونشير هنا إلى بعض الوثائق والأعمال الأمريكية في هذا المجال:

١- مؤتمر الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، مارس ١٩٤٧م.

٢- مؤتمر الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ١٩٥٣م.

٣- دراسة «الإسلام في العصر الحديث» (ولفرد كانتويل سميث)[١].

٤- دراسة «الليبرالية الإسلامية: نقد للآيديلوجيات التنموية» ليونارد بايندر[٢].

٥- تقرير مؤسسة راند الأمريكية[٣] عن الإسلام الديمقراطي.

---

(١) ولفرد كانتويل سميث، حصل على درجة الدكتوراه في جامعة برينستون سنة ١٩٤٨م تحت إشراف المستشرق المعروف هـ. ا. ر. جب، وقد تتلمذ عليه قبل ذلك في جامعة كامبريدج، وموضوع بحثه في الدكتوراه «مجلة الأزهر: عرض ونقد»، وقد أصبح: مدير معهد الدراسات الإسلامية وأستاذ الدين المقارن في جامعة ماكجيل بكندا. انظر: الإسلام والحضارة الغربية ص/ ١٤٧.

(٢) أكاديمي أمريكي.

(٣) مؤسسة راند تعرف نفسها بأنها: «منظمة غير ربحية تعني بالأبحاث وتوفر =

والأهداف الحقيقية لهذا المشروع يمكن بيانها من خلال ما يلي:

أولاً: إعادة ترتيب أوضاع المنطقة لتتقبل النموذج الليبرالي في الشأن السياسي (الديمقراطية)، والشأن الاقتصادي (الرأسمالية) لظنهم أن تطبيق الليبرالية في هذه البلاد الشرق أوسطية سيخفف الاحتقان الشعبي وبالتالي يفقد الإرهابيين (المجاهدين) التأثير على الشعوب الإسلامية في المنطقة.

ثانياً: تهيئة المنطقة للعولمة ودخول الشركات الغربية في أسواقها لزيادة الكسب، وحل مشكلة الفائض في الاقتصاديات الغربية، والبحث عن اليد العاملة الرخيصة .

ثالثاً: العمل على تطبيع العلاقات بين إسرائيل ودول المنطقة من خلال الاقتصاد والشراكة في حلف جديد غير مرتبط بهوية دينية أو قومية .

ثانياً: الليبرالية في المال والاقتصاد:

دخلت الليبرالية في اقتصاد الدول الإسلاميّة من خلال سيطرة الدول الرأسمالية الكبرى على الاقتصاد العالمي،

على ذلك ما كتبه «حسن حنفي» حيث يقول :«إن (الله) لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرج، أي أنه تعبير أدبي أكثر منه وصفاً لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفاً خبرياً ... إنه لا يعبر عن معنى معين، إنه صرخة وجودية أكثر منه معنى يمكن التعبير عنه بلفظ من اللغة، أو بتصور من العقل، هو ردة فعل على حالة نفسية أو تعبير عن إحساس أكثر منه تعبيراً عن فقد، يكون في الحس الشعبي هو الله، وكل ما نصبوا إليه ولا نستطيع تحقيقه فهو أيضاً في الشهود الجماهيري هو الله»(١)، ويقول أيضا «فالصفات السبع هي في حقيقة الأمر صفات إنسانية خالصة، فالإنسان هو العالم، والقادر، والحي، والسميع، والبصير، والمريد، والمتكلم ... هذه الصفات في الإنسان ومنه على الحقيقة، وفي الله واليه على المجاز»(٢).

ومع أن هذه الإلحاد والإنكار لوجود الله تعالى منافياً للإسلام من أصله إلا أن حسن حنفي يلصقه بالإسلام، ويحتج لذلك بكتابات ابن عربي وابن سبعين والحلاج

---

(١) من العقيدة إلى الثورة٢/ ٩ ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٠٢-٦٠٤.

وغيرهم من زنادقة وحدة الوجود، وكتابات الفلاسفة كابن سينا وغيره، ويعتبر ذلك قراءة إسلامية للإسلام مختلفة عن القراءات السلفية غير العقلانية[١]. وهو بهذا يؤسس للإلحاد الشيوعي إسلاميا[٢]. وبهذه الطريقة يناقش «أبو زيد» قضية النبوة ويجعلها إنسانية محضه، ولا تعدو أن تكون اتصالاً بين الفكر والواقع، وهي مجرد درجة قوية من درجات الخيال الناشئ عن «فاعلية المخيلة الإنسانية»[٣]،وأساس هذا الفكر الإلحادي هو أن تأويل النص لا توجد له حقيقة موضوعية وليس له معيار لمعرفة الحق من الباطل، لأنه مرآة صامتة «فالنص أخرس، صامت، مؤلفه قد مات، والمؤول هو الذي يجعله يتكلم»، والنتيجة أنه مع تعدد القراءات يكون كل قراءة ظنية ممكنة الصدق أو الكذب، ولا يمكن إقامة البرهان عليها[٤]

ومن النماذج التطبيقية لهذا الفكر «فصل الدين عن

---

(١) انظر: التراث والتجديد «الكتاب كله»، دراسات إسلامية «الكتاب كله».

(٢) انظر حول الموضوع كتاب «التفسير الماركسي للإسلام» محمد عمارة.

(٣)انظر: مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن ص/ ٣٨-٦٥.

(٤) انظر مجلة قضايا إسلامية معاصرة- عدد١٩ ص/ ٩٠-١٠٠-

الدولة»، و«تنحية الشريعة وتطبيق القوانين الوضعية»، ولهذا ظهر ما يسمى«الإسلام العلماني»[(١)].

يقول حسن حنفي: «نشأت العلمانية استرداداً للإنسان، ولحريته في السلوك والتعبير، وحريته في الفهم والإدراك، ورفض لكل أشكال الوصاية عليه، ولأي سلطة فوقية إلا سلطة العقل والضمير!!، العلمانية إذن هي أساس الوحي، فالوحي علماني في جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ»[(٢)]. والفصل بين الدين والدولة، واعتبار الدين شأناً شخصياً بينما الدولة أمراً مدنياً يبنى على العقل والمصلحة من النقاط التي اتفق عليها كتاب المدرسة العصرانية الحديثة[(٣)] منذ أيام علي عبد الرزاق في كتابه الإسلام

---

(١) انظر كثيرا من النصوص في هذا المجال في كتاب: العصرانيون ص/ ٢٧٤- ٢٨٤.

(٢) التراث والتجديد ص/ ٦٩ .

(٣) العصرانية (modernism) حركة تجديد واسعة نشطت في داخل الأديان الكبرى، داخل اليهودية،والنصرانية والإسلام، وهي مصطلح خاص تعني وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة، يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة. انظر: المورد ص/ ٥٨٦

وأصول الحكم وإلى زماننا المعاصر[١].

ولاشك أن العصرانية وسيلة موصلة إلى العلمانية فيما مضى، أما الآن فقد اتفق العصرانيون والعلمانيون في تأويل عقائد الإسلام وأحكامه وأخلاقه ليتوافق مع التحديث الغربي، وهذا ما أصبح يعرف بالإسلام الليبرالي.

وقضية الموقف من الآخر والاعتراف به من أهم القضايا التي يناقض فيها دعاة الإسلام الليبرالي أصول الدين وحقيقة الإسلام والولاء والبراء.

فالأديان السماوية متساوية في الصحة والقبول ـ عندهم ـ، وهذا يقتضي عدم تكفير الآخر المنافي في أساس الدين، يقول عبد العزيز كامل: «ونحن في منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى. وأقولها واضحة يستوي في هذا الإسلام والمسيحية واليهودية، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم بإله واحد، هذه منطقة توحيد والصور تختلف، حتى في مصر القديمة مع التعدد الظاهري

---

(١) انظر: العصريون معتزلة اليوم (يوسف كمال)، والعصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب (محمد حامد الناصر)، ومفهوم تجديد الدين (بسطامي محمد سعيد).

كان للآلهة كبير هو أوزير[١]. وتقف فكرة الاعتراف بالآخر واعتقاد صحة إيمانه، وفي أقل تقدير عدم الجزم ببطلان عقيدة الآخر على أساس التعددية والتنوع والاختلاف.

ويتسع تعدد الحق عندهم إلى أن يصل إلى تصحيح الأديان الأخرى غير دين الإسلام، أو على الأقل عدم الجزم والتأكيد على أن عقائدهم باطلة، لأن هذا الجزم فكرة وثوقية مستعلية غير معترفة بالآخر.

ومدرسة الإسلام الليبرالي ذات تنوع عجيب في أشخاصها وأفكارها وأهدافهم ومقاصدهم وارتباطاتهم ومستوى آرائهم من حيث الغلو، فهي مكونة من نسيج متعدد يشكل تأويل الإسلام لموافقة العصر (العصرانية) قاعدته المشتركة.

- فقمة هذه المدرسة مجموعة من الزنادقة والملاحدة يناقضون جذور الإسلام وأصوله الأساسية[٢]، ومنهم بعض

---

(١) انظر: الإسلام والعصر ص/ ١٩٤، وانظر نصوص كثيرة في العصريون معتزلة اليوم ص/ ٣٠-٤٠.

(٢) مثل محمد أركون،وحسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد، وخليل عبد الكريم، والعفيف الأخضر، وسيد القمني ونوال السعداوي، وأحمد البغدادي ومحمد سيد عشماوي، وطارق رمضان، وغيرهم.

المخلطين في الفكر والعقيدة، ومنهم منهزمون من الكتاب الإسلاميين وبعض الفقهاء والدعاة.

- وتتنوع أفكارهم: فمنهم من يوافق الفلاسفة والحلولية والباطنية والملاحدة في نفي حقيقة الألوهية، والنبوة، والوحي، والغيبيات، ويرفض تحكيم الشريعة، ومنهم من يفصل بين الدين والدولة، ويرى ضرورة القانون الوضعي المدني، وضرورة الربا للاقتصاد المعاصر، وينفي الحجاب عن المرأة ويراه احتقاراً لها، ويرى البعض عدم الاستدلال إلا بالقرآن، وينفي السنة والإجماع، ويطالب بتجديد أصول الفقه وغيرها من العلوم المعيارية، ولهم آراء ترفض الولاء والبراء، وتكفير المشركين، وتنكر الجهاد، وتؤمن بالديمقراطية، والتعددية، والحريات بما في ذلك التصريح بنشر الإلحاد وغيرها من الأفكار الشاذة.

- وتختلف ارتباطاتهم: فمنهم عملاء للصليبية العالمية يتلقون الدعم المادي من العدو، ويتعاونون معه، ويشاطرونه الأفكار وأسلوب العمل، ويدافعون عن سياسته، ومنهم مستلب حضارياً، منهزم فكرياً غير قادر على الرفض مع ظهور علامات العدوان ودلائله ولكنه لا يتقاضا شيئاً مادياً

لآرائه، فهي ناشئة من الهزيمة الفكرية والنفسية مع قصور في العلم الشرعي، وتخليط في تكوينه الثقافي، ومنهم من يقف ضد المشروع الأمريكي ويناهضه، وهذا مع وجود آراء تقربه من مشروعه إلا أنه في تحسن مستمر، ووعي دائم، وتتكشف له الحقيقة، وهو مظنة العودة للحق إذا نوقش وتمت معه عملية حوار علمي مفيد.

- وتختلف مستوى آرائهم: فمنهم من يناقض أصل الدين في العقائد والأحكام والأخلاق والأمور الاجتماعية، وهو الذي تمت الإشارة إليه في تقرير مؤسسة راند الأمريكية مثل من ينكر الألوهية والنبوة والغيبيات ويرى «تاريخية النص»، ويرفض تحكيم الشريعة، والحجاب، ويبيح الربا وغيره. ومنهم من يناقض أصول الدين بدرجة أقل غلواً مثل من لا يكفر المشركين، ويرفض الولاء والبراء، ويرى ضرورة القوانين الوضعية والربا وغيرها، ومنهم روافد لا يصلون لهذه الدرجة ولكن آراءهم ترفدهم عن غير قصد مثل من ينفي وجوب كراهة الكفار، ويجوّز الحكم بالديمقراطية وغيرها.

ثالثًا: تيارات الليبرالية :

جاءت الليبرالية إلى البلاد الإسلامية من خلال الاستعمار المباشر وإعادة تركيب البلاد المستعمرة على أسس ليبرالية تتوافق مع مصالح المحتل، وقد كان للمستغربين تأثير كبير في توسيع نطاق الليبرالية والمطالبة بها .

ولم تكن هناك حاجة ذاتية للفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية، وما يوجد من خلل في الأمة الإسلامية في مجال الحريات يمكن علاجه بالالتزام الحقيقي بالإسلام، وهو الكفيل بتحقيق الحرية والعدل في حياتها وهذا يؤكد أن الدعوة لليبرالية ذات مصدر خارجي أجنبي دعمته مجموعة معجبة بالغرب منهزمة أمام حضارته المادية .

وقد كانت البداية في الدعوة إلى الليبرالية تعتمد على الدعوة العامة للحرية واتباع الغرب في نهضته الجديدة للوصول إلى مستواه الحضاري المادي.

وهذه البداية تمت على يد تيارين هما :

- **تيار عصراني:** يربط بين دعوته للحرية والإسلام، مع انبهار بالحضارة الغربية، ومحاولة نسبة بعض منجزاتها المحددة للإسلام مثل الحرية الديمقراطية، والتعددية،

والاعتراف بالآخر وغيرها.

يقول الطهطاوي: «الحرية من حيث هي رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح، ولا معارض محظور.. وتنقسم إلى خمسة: حرية طبيعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية سياسية...الحرية الطبيعية هي التي خلقت مع الإنسان، وانطبع عليها فلا طاقة لقوة البشرية على دفعها بدون أن يعد دافعها ظالماً...الخ»[١].

ويقول خير الدين التونسي: «إن الحرية والهمة الإنسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان في أهل الإسلام مستمدان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب»[٢]. ويقول الكواكبي: «إن الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح»[٣]

ويبدو الكلام في الحرية عاماً لكنه يعني الحرية الغربية التي سحرت الألباب وخطفت العيون في زمانهم كما تبين سابقاً، وقد وضع هذا التيار أسس «الإسلام الليبرالي» الذي

---

(١) المرشد الأمين – الأعمال الكاملة للطهطاوي ٣/ ٣٧٣-٣٧٤ .

(٢) أقوم المسالك ص/ ١٥٨.

(٣) طبائع الاستبداد – الأعمال الكاملة للكواكبي –ص/ ٥٧ .

يقارب بين الإسلام وقيم الحضارة الغربية ومنها «الحرية»، وقد فتح هذا التيار بوابة الزندقة التي تتلاعب في الدين باسم «تاريخيّة النص»، و«تعدد قراءات النص الديني»، و«نقد الخطاب الديني» وغيرها. ومع أن بدايات هذا التيار وبعض المنتسبين إليه لم يصلوا لهذه الزندقة إلا أنهم فتحوا الباب لهم، كما فتح المتكلمون ـ قديماً ـ الباب للباطنية والملاحدة من خلال التأويل.

- **تيار علماني**: يطالب «بالحرية» على الطريقة الليبرالية الغربية دون الحاجة إلى الربط بالدين، يقول أحمد لطفي السيد«خلقت نفوسنا حرة، طبعها الله على الحرية. فحريتنا هي نحن.. هي ذاتنا، ومفهوم ذاتنا هي أن الإنسان إنسان، وما حريتنا إلا وجودنا وما وجودنا إلا الحرية»[١]. وقد وضع «طه حسين»[٢] منهج النهضة في قوله: «هي أن نسير سير

---

(١)مبادئ في السياسة والأدب والاجتماع نقلاً عن: مفهوم الحرية ص/ ٥٠.

(٢) أديب وناقد مصري، ولد سنة ١٨٨٩م، فقد بصره وهو طفل صغير، اشتهر بآرائه المنحرفة في الأدب والحياة وبموقفه السيئ من القضايا الإسلامية. أشهر آثاره: «الأيام» و«في الشعر الجاهلي» و«المعذوبون في الأرض» و«من تاريخ الأدب العربي». توفى سنة ١٩٧٣م. معجم أعلام المورد ص/ ١٧٢.

الأوربيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يعاب»(١).

ويؤكد ذلك بقوله: «نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها، لفظاً ومعنى، حقيقة وشكلاً»(٢).

وبهذا يتبين أن هذا التيار يطالب بالحرية الغربية دون تهذيب أو تغيير، وقد كان لنصارى العرب دور كبير في ترسيخ هذا الفكر من خلال صحفهم ومؤلفاتهم(٣).

وقد كانت هذه التيارات تهتم بالدعاية للفكر الليبرالي بصورة عامة، ولم تناقشه بطريقة علمية عميقة، ومما يؤكد ذلك أن صعود الليبرالية في البلاد الإسلامية لم يعرف مناهج الليبرالية واتجاهاتها الفكرية، وصراعها العقدي، ولهذا لم

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص/ ٤٣.

(٢) المصدر السابق ص/٤٨، ويمكن مراجعة نقد الأستاذ سيد قطب له، وكتاب: تحت راية القرآن لمصطفى الرافعي.

(٣) يعتبر نصارى العرب من أول من أسس الصحافة في الوطن العربي، ومصر بشكل خاص، ومن خلال الصحف بثوا آراءهم الليبرالية، ومن هذه الصحف: المقتطف، والهلال، والأهرام، والمقطم وغيرها.

تتأثر بموجات المد والجزر لليبرالية الغربية.

وإذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر فإننا نجد الوضع قد تغير، حيث تعرّف العالم الإسلامي على الليبرالية بشكل أكبر، ولهذا نشأت تيارات متعددة لليبرالية نذكر في هذا المقام أبرز هذه التيارات على النحو التالي:

١- تيار الليبرالية الإسلامية(١):

وهذا التيار يسعى للتوفيق بين الليبرالية والإسلام ونفي التعارض بينهما، وقد نشأ هذا التيار أول الأمر في «الحركة الإصلاحية» على يد محمد عبده وتلاميذه، ثم بعد ذلك في «مدرسة التجديد» التي بدأت منذ الستينات الميلادية، وبعد أحداث ١١ أيلول أصبح هذا الفكر أكثر بروزاً من ذي قبل، وقد اعتنت الدول الغربية به للاستفادة منه في تسويق مشاريعها في البلاد الإسلامية.

وليست رؤية هذا التيار واحدة، ولكن إطارها العام هو التوفيق بين الإسلام والحداثة الغربية، والإصلاح الديني بما يتناسب مع هذه الحداثة، ولهذا اختلفت رؤيتهم بناء على

---

(١) انظر حول هذا الموضوع: دعوى الإسلام الليبرالي ص/ ٣٦٩.

معرفتهم بالحداثة الغربية وتطورها المستمر.

يقول عبد الرحمن الحاج: «الوعي بالتاريخ هنا ليس في الشعور بالتغيّر الثوري الذي حدث في العالم، فجميع أشكال الخطاب الإسلامي «الإصلاحي» و«التجديدي» مؤمن من غير تردد بذلك، لكن تحليل هذا التغير وتفسيره أمر بدا مختلفاً جداً في كل مرحلة من مراحله، وهي تتصل بمدى وعيه للحداثة وتطوراتها المتسارعة قرباً وبعداً، ففيما «الخطاب النهضوي» لخط التقدم الغربي في شقه التنظيمي والمادي (الطهطاوي والتونسي) لم ير ضرورة في تطوير الخطاب الإسلامي، فمسألة «الإصلاح الديني» لم تستبعد وحسب، بل استهجنت ورفض التفكير فيها، وسرعان ما أدرك «الاصلاحيون» (عبده وتلاميذه) في إطار الحقبة الكولونياليه (الاستعمارية) أن المسألة أبعد من مجرد نقل للحضارة الغربية، وأن الفجوة الواسعة والمطردة بيننا وبين الغرب ليست مجرد تطورات تقنية وإدارية تنظيمية، إنها أيضاً مسألة تطور في المعرفة الإنسانية، وليس في العلوم المادية فحسب، إلا أن تفسير التقدم الغربي بوصفه تطوراً عن الصراع مع الكنيسة، وضع «الإصلاحيين» و«الخطاب

الإسلامي» ـ بمنطق المقايسة بجامع علة متمثلة في النهضة الحديثة ـ أمام خيار إعادة إنتاج للنهضة على الإيقاع الغربي نفسه، وهكذا قرر زعماء الإصلاحية (عبده وتلاميذه) أنهم لابد أن يمارسوا دوراً لوثرياً، بل لقد صرحوا بأن الإصلاح الديني هو مثيل الإصلاح البروتستانتي تماماً، هنا يبدو أن الزمن بدأ يصبح في الوعي الإصلاحي زمن الغرب وحضارته، وليس زمننا الخاص...»[١] ولم يكن حظ «مدرسة التجديد» أقل من ربط خطابها بتغيرات الحداثة الغربية، حيث سارت على خطا مدرسة محمد عبده مع غلو أكثر في تأويل النص الديني، ووضع أدوات جديدة في تأويله وصرفه عن حقيقته[٢].

وبهذا أصبح من الأمور العادية لدى هذا الخطاب

(١) التجديد الإسلامي وخطاب ما بعد الهوية – إسلام أون لاين- الإسلام وقضايا العصر-٢٣/ ٢/ ٢٠٠٤م

(٢) عقد المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع الملتقى الفكري للإبداع مؤتمرا في ١١-١٢ فبراير٢٠٠٥م، ببيروت حول «التطورات الحديثة في دراسة القرآن الكريم» بهدف الاستفادة من النظريات الغربية الجديدة في علوم اللغة وقراءة النص واللسانيات والمنهج المقارن في تفسير القرآن وعلومه.

التجديدي[١] اعتبار قيم الليبرالية، وثقافة الديمقراطية أموراً ضرورية متوافقة مع حقيقة الإسلام، ولا ينكر ذلك إلا متشدد متطرف.

ومن ذلك النظر إلى الآخر (الكافر) دون تكفير أو إقصاء فضلاً عن الجهاد والقتال، واعتبار الديمقراطية وما تقتضيه من تشريعات مدنية متوافقة مع الفكر السياسي الإسلامي.

وينظر هؤلاء إلى التركيبة العالمية، وسيطرة الكفّار، ونظم الحداثة الغربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية على أنها لا تعارض الإسلام، ويجب أن لا يسعى المسلمون إلى إنكارها بحجة وجوب تحكيم الشريعة، لأن الإسلام علاقة روحية وليس نظاماً سياسياً شمولياً يحكم حياة الناس بصورة كاملة، فالأمور المدنية تشريعية أو إدارية متروكة للناس يرون فيها ما يصلحهم[٢].

---

(١) ينظر إنتاج هذا الخطاب في بعض مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وموقع الملتقى الفكري للإبداع، ومجلة الاجتهاد والتجديد، وبعض المقالات في موقع إسلام أون لاين.

(٢) ينظر في ذلك ما تقدم في الحاشية السابقة، وكتاب العصرانيون ص / ١٧٥-٣٤١.

٢- تيار الليبرالية القومية :

وقد نشأ هذا التيار في وقت مبكر[(١)]، وقد كان من رواده نصارى العرب[(٢)]، وقد استمرت القومية منذ نشأتها ليبرالية إلى الخمسينات ثم بدأت مرحلة جديدة، وكانت البداية عن طريق الانقلابات العسكرية في الوطن العربي، وقد كانت هذه الفترة وما بعدها تشهد مداً يسارياً قوياً، فتبنت الحكومات العسكرية النظرية الاشتراكية بحجة الاستقلال عن الامبريالية الغربية، فأممت الكثير من وسائل الإنتاج، وفي هذه المرحلة قطعت الحكومات العسكرية الصلة بالليبرالية قطعاً باتاً.

ففي المجال السياسي اعتمدت فكرة الحزب الواحد مع التضييق على الحريات ومنع الأحزاب وتأميم الصحافة، وفي المجال الاقتصادي قامت بتوسيع دور الدولة في تنظيم الاقتصاد، وتأميم بعض وسائل الإنتاج ولكن هذه التجربة

---

(١) ينظر حول نشأة الوطنية والقومية بما فيها التيار الليبرالي الوطني والقومي: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٦٧-٢٤١، ٢/٩٩- ١٨٩، ورسالة «القومية العربية» صالح العبود.

(٢)انظر: الاتجاهات الوطنية ١/ ٩٠، ٢/ ٩٩ وما بعدها .

فشلت، وبدأت رياح التحول والعودة للديمقراطية، وكان ذلك على وجه التحديد في منتصف السبعينات[١].

وإذا تركنا جانب التطبيق العملي في أنظمة الحكم وسياسة الاقتصاد لأنها تتعرض لتغيرات متكررة[٢] فإن الجانب الفكري يعد منضبطاً إلى حد ما.

ويتميز هذا التيار بقبوله لليبرالية في مجالها السياسي من خلال دعوته لتطبيق الديمقراطية، ورفضه لليبرالية في مجالها الاقتصادي المتمثل في اقتصاد السوق الحرة، والنظام الرأسمالي، ولعل أقرب اتجاه ليبرالي في أوروبا يشابه فكر هذا التيار ما يسمى «بالديمقراطية الاجتماعية» أو

---

(١) انظر: الندوة المصرية – الفرنسية السادسة (الليبرالية الجديدة) ص/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) تم تكوين الشكل السياسي للبلاد العربية عن طريق الاحتلال (اتفاقية سايكس بيكو) وهي اتفاقية تخص المحتل، وأنشأ رابطة قومية لهذه الدول وهي (جامعة الدول العربية) وبعد خروج المحتل بقي ارتباط هذه الدول بالدول الصناعية في نوع جديد من الاحتلال (ارتباط المراكز بالأطراف)، وقد زادت أزمة هذه الدول بعد احتلال أمريكا للعراق، حيث ظهر درجة الاستعمار الجديد، ومن هنا فالوضع السياسي العربي ليس بالضرورة معبراً عن هذا الاتجاه لأنه يسير بطريقة نفعية خاصة بعيداً عن المبادئ والالتزام الفكري، وإن كان مؤكداً لفساد الفكرة وعدم وجود أفق تطبيقي لها.

«الديمقراطية الاشتراكية».

ولقد كان لهذا التيار دور إيجابي في بيان خطورة الليبرالية الاقتصادية ودورها المدمر للاقتصاد الوطني، وضرر تبني برامج التكيف الليبرالية على الأمة العربية(١) وهو يدل على روح وطنية صادقة بعيدة عن التسويق لمشاريع المستعمر التي تريد الهيمنة على الأمة في ثرواتها وقيمها وثقافتها وحضارتها.

إن الباحث ليقف معجباً من الانجاز المعرفي الذي قدمه هذا التيار في نقد الرأسمالية الليبرالية،والدور الرائد في

---

(١) انظر: الدراسة الموسعة في مجلة الأهرام الاقتصادي ما بين سبتمبر ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٣ على مدار خمسة وعشرين حلقة تحت عنوان «مأزق النظام الرأسمالي» للدكتور رمزي زكي، وهذه الحلقات من أروع ما كتب عن الرأسمالية ودورها في الهيمنة على البلاد النامية وخاصة البلاد العربية، وللكاتب دراسات رائدة في الاقتصاد الرأسمالي وآثاره على الوطن العربي منها: أزمة الديون الخارجية: رؤية من العالم الثالث، والأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة وغيرها من الدراسات المفيدة. وانظر - أيضاً - كتابات الدكتور سمير أمين ومنها: التطور اللامتكافئ، والطبقة والأمة في التاريخ وفي المرحلة الإمبريالية وغيرها، وانظر أيضاً: العولمة الاقتصادية (هيمنة الشمال والتداعيات على الجنوب) الدكتور محمود خالد المسافر (مطبوعات بيت الحكمة) وغيرها.

كشف ألاعيبها وخداعها.

ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ أن المنطلق في ذلك منطلقاً علمانياً صرفاً، فهو لا يعرف الحق إلا من خلال الفكر الغربي ونتائجه، فعندما نقد وحشية الليبرالية وظلمها وعدوانها على الفقراء وتدميرها لمستقبل التنمية المستقلة، لم يبحث عن الحق في الشريعة الإسلامية الثرية، ولكنه اتجه للاشتراكية الغربية من خلال تبني أفكار طرف ليبرالي آخر (الديمقراطية الاشتراكية)، وهذا يدل على أنه لا يعرف الحق إلا من خلال الفكر الغربي، وهو ـ كذلك ـ يدل على الجهل العظيم بحقيقة الإسلام وشريعته الربانية.

وهذا التيار يسعى إلى فك الارتباط بين الديمقراطية والليبرالية الجديدة، وتحرير المفهوم الديمقراطي من أسر الفكر الليبرالي، لأن الديمقراطية تتضمن قيم العدالة والمساواة، بينما الليبرالية تؤكد على الحرية الفردية[١].

وهذا الإشكال في العلاقة بين الحرية والمساواة موجود في الفكر الغربي، وهو الذي تم بموجبه انقسام الليبرالية إلى

---

(١) انظر: لماذا يخلط المثقفون العرب بين الليبرالية والديمقراطية ؟ - برهان غليون - مقال في صحيفة النهار اللبنانية، الاثنين ٣١/ تشرين الأول/ ٢٠٠٥م.

اتجاه ديمقراطي اجتماعي يغلب جانب المساواة، ويطالب بتدخل الدولة في تقديم الدعم الاجتماعية (دولة الرفاة)، واتجاه رأسمالي ينابذ تدخل الدولة في الرعاية الاجتماعية، ويعتقد أن معنى المساواة هو: المساواة في الحرية الفردية من حيث إمكان العمل، فإذا صار بعض الناس أغنياء، والآخرون فقراء فهذا لا يعني التدخل في الحريات لفرض المساواة لأنها حينئذ ستدمر الحرية، وتخرج عن سياق المساواة إلى العبودية والطغيان.

فليس هناك فكر جديد سوى اجترار ما لدى الغربيين من أفكار، ربما يبدو هذا الاتجاه أبعد عن العمالة وأقرب للوطنية من «الليبراليين الجدد» على الأقل على المستوى النظري، ولكن المهم أن المرجعية الفكرية لديهم واحدة وهي العلمانية(١).

٣- تيار الليبراليين الجدد :

هذا التيار حديث النشأة، فقد نشأ بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي، وزاد حضوره في بداية القرن

---

(١) انظر حول هذا الاتجاه: موقع التجديد العربي، وإنتاج مركز دراسات الوحدة العربية وبرنامج «مشروع دراسات الديمقراطية».

الحادي والعشرين، وبالذات بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م.

ويعتمد هذا التيار على تراث الفكر الليبرالي العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وخاصة فكر حزب الأمة [١].

وتتلخص أفكارهم فيما يلي :«حرية الفكر المطلقة، وحرية التدين المطلق، وحرية المرأة ومساواتها بالحقوق والواجبات مع الرجل، والتعددية السياسية، والمطالبة بالإصلاح الديني والتعليمي والسياسي، وفصل الدين عن الدولة، وإخضاع المقدس والتراث للنقد العلمي، وتطبيق الاستحقاقات الديمقراطية» [٢].

كما يعتمد على الأفكار الجديدة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين وهي: «محاربة المجتمعات

---

(١) وجد في تلك الفترة «حزب الأمة» وهو حزب ليبرالي متعاون مع الاحتلال، ويشابه الليبراليين الجدد هذه الأيام، و«الحزب الوطني» وهو حزب ليبرالي وطني يقف ضد الاحتلال، ويشابه موقف الليبرالية القومية، وكما وقع خلاف قديم بين الحزبين، فقد وقع خلاف بين هذين التيارين: انظر حول الحزبين: الاتجاهات الوطنية ١/ ٩٤ وما بعدها، و١/ ١٧٥ وما بعدها.

(٢) من هم الليبراليين العرب الجدد، وما هو خطابهم ؟ - شاكر النابلسي - جريدة إيلاف الالكترونية.

الدكتاتورية العسكرية والقبلية والحزبية المتسلطة، والمناداة بإقامة المجتمع المدني، وإحياء دعوة الإصلاح الديني من جديد، والتأكيد على العلمانية وفصل الدين عن الدولة»[١]

وقد تميز هذا التيار عن التيارات الليبرالية الأخرى بعدة أمور منها[٢]:

أولاً: الوقوف في صف المشروع الأمريكي في المنطقة، والمطالبة بما يريده ويسعى له مثل: تغيير مناهج التعليم، واستعمال القوة العسكرية لتغيير الأنظمة العربية، وفرض الديمقراطية عن طريق الاحتلال المباشر لهذه الدول، ولهذا فرحوا فرحاً كبيراً باحتلال أمريكا للعراق، وقد صرح بعضهم بأنه يتلذذ بسماع صوت القنابل، ودوي الإنفجارات في بغداد، وكأنها «موسيقى بتهوفن»[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق، وانظر: الفكر العربي في القرن العشرين ١٩٥٠-٢٠٠٠ - شاكر النابلسي -.

(٢) انظر من هم الليبراليين العرب الجدد، وما هو خطابهم ؟ - شاكر النابلسي - جريدة إيلاف الالكترونية.

(٣) انظر: الجزيرة. نت - برنامج الاتجاه المعاكس: الليبراليون العرب الجدد، والمحافظون الجدد، وفي هذا البرنامج رفض النابلسي إدانة الصهيونية في الوقت الذي سمى المجاهدين بفرق الموت ودعاة الإرهاب.

يقول شاكر النابلسي: «عدم الحرج من الاستعانة بالقوى الخارجية لدحر الدكتاتورية العاتية،واستئصال جرثومة الاستبداد، وتطبيق الديمقراطية العربية، في ظل عجز النخب الداخلية والأحزاب الهشة عن دحر تلك الدكتاتورية وتطبيق الديمقراطية»[١].

وأنه لا حرج من الإتيان بالإصلاح على ظهر دبابة بريطانية أو بارجة أمريكية.

ثانياً: تطبيق مقاييس النقد الغربي على نصوص الوحي، وإخضاع المقدس للمنطق العقلاني، وهذا عندهم هو الأساس العلمي في معرفة الحقيقة، وصحتها .

ثالثاً: رفض العداء لغير المسلمين، واعتبار الموقف العدائي عند المسلمين ناتج عن ظروف سياسية واجتماعية معينة، وهي لم تعد قائمة الآن، ولهذا لا يصح أخذ هذه المواقف العدائية الموجودة في النصوص المقدسة، ومهاجمتهم وسفك دمائهم بناء على ذلك، لأن المصالح متغيرة، والمواقف متغيرة، فيجب تغير هذه العقائد.

---

(١) من هم الليبراليين العرب الجدد، وما هو خطابهم ؟ – جريدة إيلاف الالكترونية –.

رابعاً: «اعتبار الأحكام الشرعية أحكاماً وضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكاماً عابرة للتاريخ كما يدعي رجال الدينِ، ومثالها الأكبر حجاب المرأة، وميراث المرأة ...الخ»[١].

خامساً: رفض الارتباط بالإسلام لأنه ماضٍ، واعتبار الموجود عبارة عن فكر علماء الدين كما يعبرون وليس الدين الرسولي، وهو يقف عثرة ضد الفكر الحر، وميلاد الفكر العلمي.

سادساً: «الشعوبية» وكره العرب واتهامهم بكل النقائص، وذكر مثالبهم ونقائصهم، واعتبار الدعوة للاستقلال مجرد شعارات غوغائية لا تمت للعقلانية بصلة.

وقد تتبعت آراء[٢] هذا التيار فوجدت أنه تيار عميل للدول الاستعمارية، وخاصة الولايات المتحدة، ولا يخرج

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) إنتاج هذا التيار موجود في: جريدة إيلاف الالكترونية وموقع الحوار المتمدن، وصحيفة الشرق الأوسط، وصحيفة الأحداث المغربية، وصحيفة السياسة الكويتية، وصحيفة الاتحاد الإماراتية، وفي كتابات: شاكر النابلسي، والعفيف الأخضر، وإحسان الطرابلسي، ومأمون فندي، وفؤاد عجمي، وكنعان مكيّة، وغيرهم.

عن آرائها، فالمقاومة الفلسطينية والعراقية ـ عندهم ـ إرهاب وتطرف، ولا يمكن حل الصراع العربي الصهيوني إلا بالمفاوضات على الطريقة الأمريكية، وضرورة التطبيع الكامل مع إسرائيل، والدخول في العولمة واقتصاد السوق الحرة من أوسع أبوابها، وغير ذلك من الآراء، ولا تكاد تجد قضية سياسية إلا وتجد هذا التيار يتطابق في رؤيته مع الولايات المتحدة حتى على مستوى خلاف أمريكا مع الصين أو الهند، أو زيادة إنتاج النفط والموقف من شافير (الرئيس الفينزولي).

وهذا يؤكد أن هذا التيار عبارة عن احتياطي إعلامي يستعمله الأمريكيون لتسويق أفكارهم وسياساتهم، وجناح فكري، ورافد ثقافي لمشاريعهم في المنطقة الإسلامية.

* * *

الحكم الشرعي في الليبرالية

الليبرالية ـ كما سبق ـ فكرة غربية مستوردة، وليست من إنتاج المسلمين، وهي تنفي ارتباطها بالأديان كلها، وتعتبر كافة الأديان قيوداً ثقيلة على الحريات لا بد من التخلص منها.

وقد تقدم الكلام حول حقيقتها، وتصورها لمفهوم الحرية، ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الليبرالية مناقضة للإسلام في أصوله ومنهجه وأخلاقه وقيمه.

ومحاولة التوفيق بين «الليبرالية» و«الإسلام» هي تغيير لمفهوم كل واحد منهما، وتبديل لمعناه يخرجه عن حقيقته إلى مفهوم مشوّه، وصورة غير صحيحة لكل منهما.

ومن البديهي أن نقول: إن فلاسفة الليبرالية ومفكريها الذين وضعوا أصولها في فترات مختلفة قد شكلوها خارج إطار الأديان جميعاً، ولم يدعي أحد منهم ارتباطها بدين من الأديان ولو كان ديناً محرفاً.

ومع هذا الوضوح يبقى من يُصرّ من المسلمين على أنه بالإمكان الجمع بين منهج مادي يرفض قيود الأديان، ومنهج

الإسلام الرباني، ولهذا سنبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الليبرالية تعني في الإسلام ألواناً متعددة من الكفر والشرك المناقض لحقيقته، وأشكالاً مختلفة تنافي أخلاقه وقيمه الكريمة.

أولاً: نواقض الإيمان في الليبرالية:

إن دارس الليبرالية يجد أنها دعوة إلى الإلحاد ورفض الأديان حيث لا تعترف بهيمنة الدين على الحياة الإنسانية، فقد نمت هذه الفكرة في أجواء رافضة للدين، ومعترضة عليه، وهي تريد أن تعطي الإنسان حريته المطلقة بالتحلل من قيود الأديان والقيم والأخلاق، فأساس الفكرة قائم على تعظيم العقل الإنساني وماديته، ولهذا ارتبطت عبارة «الفكر الحر» في كتابات الغربيين بالإلحاد والرفض للدين والقيم وعليه فإنّ الليبرالية لا تتفق مع الإسلام

وفي هذه الفقرة سأذكر بعضاً من أنواع الكفر والشرك الواقعة في الليبرالية، ليتبين من خلالها الحكم الشرعي في الليبرالية:

١ - كفر الاستحلال:

الاستحلال معناه: أن يعتقد في المحرمات أنها مباحة،

ويجوز فعلها مع علمه بأن الله تعالى حرمها[1]، وقد أجمع العلماء على أن المستحل لما حرمه الله تعالى مما هو معلوم من الدين بالضرورة

ومتواتر فهو كافر خارج عن دين الإسلام[2]. يقول القاضي «عياض»[3]: «وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا مما حرم الله بعد علمه بتحريمه، كأصحاب الإباحة من القرامطة، وبعض غلاة المتصوفة»[4].

وقد ذكر القاضي «أبو يعلى» أن من اعتقد تحليل ما حرم

---

(١) انظر: الصارم المسلول ٣/ ٩٦٢.

(٢) نقل الإجماع على ذلك كثيرون منهم البغوي في شرح السنة ١/ ١٠٣، وابن سحمان في الضياء الشارق ص/ ٣٤٩.

(٣) عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، أبو الفضل، نسبته إلى بلدة (سبتة)، وعالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. ولد بسبتة سنة ٤٧٦هـ ـ ١٠٨٣م، ولي قضاء سبتة، ثم قضاء غرناطة، من تصانيفه: «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» و«ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك» و«الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، توفي بمراكش مسموماً، قيل: سمه يهودي، سنة ٥٤٤هـ ـ ١١٤٩م. سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٢١٢ - ٢١٩).

(٤) الشفا ٢/ ١٠٧٣.

الله بالنص الصريح من الله أو من رسوله، أو أجمع المسلمون على تحريمه فهو كافر كمن أباح شرب الخمر وغيره فهو كافر بإجماع المسلمين[(١)].

وتكفير المستحل للمحرمات لا خلاف فيه بين العلماء، فقد كفّره العلماء من سائر المذاهب، يقول «ابن قدامة»[(٢)]: «ومن اعتقد حل شيء أجمع على تحريمه، وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه كلحم الخنزير والزنا وأشباه هذا مما لا خلاف فيه كفر»[(٣)].

ويقول مُلاّ قاري الحنفي: «من استحل حراماً، وقد علم في دين النبي ﷺ تحريمه كنكاح ذوي المحارم أو شرب الخمر أو أكل ميتة أو دم أو لحم خنزير من غير ضرورة

---

(١) انظر: المعتمد في أصول الدين ص/ ٢٧٢

(٢) عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي أبو محمد موفق الدين، فقيه من أكابر الحنابلة، ولد سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦م، من تصانيفه: «المغنى» شرح به مختصر الخرقي، و«الكافي» و«المقنع» و«عمدة الفقه» كلها في الفقه و«ذم ما عليه مدّعو التصوف»، توفى بدمشق سنة ٦٢٠هـ - ١٢٢٣م. الأعلام (٢٢/ ١٦٥ - ١٧٣).

(٣) المغني ٨/ ١٣١ (ط التركي).

فكافر»[(١)].

ولهذا عد العلماء من أنواع الكفر «كفر الاستحلال»[(٢)]، ولا فرق في الاستحلال بين الكبائر والصغائر، يقول مُلاّ على قاري «إن استحلال المعصية صغيرة كانت أو كبيرة كفر إذا ثبت كونها معصية بدلالة قاطعة»[(٣)].

وضابط الأمر المستحل هو أن يكون أمراً ظاهراً متواتراً لا يوجد فيه خلاف ولا شبهة مثل تحريم الزنا والربا وأكل الخنزير وغيرها[(٤)].

وسبب كفر المستحل التكذيب أو العناد، فإن اعتقاد إباحة أمر محرم يدل على تكذيبه لمن حرمه أو عناده له، وكلاهما مناقض لحقيقة الإيمان[(٥)].

فلا يشترط لتكفير المستحل أن يصرح بالتكذيب أو

---

(١) شرح الفقه الأكبر ص/ ١٢٦

(٢) انظر مثلاً: مدارج السالكين ١/ ٣٦٧، ومعارج القبول ٢/ ٥٩٣

(٣) انظر: شرح الفقه الأكبر ص/ ١٢٦

(٤) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ٦٦-٦٨

(٥) انظر حول الكلام في الفرق بين التكذيب والاستحلال: المصدر السابق ٢/ ٥٩

يعتقده، لأن الجحود في حد ذاته كفر ينقل عن الملة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة: كالفواحش والظلم، والخمر والميسر، والزنا وغير ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة: كالخبز واللحم والنكاح. فهو كافر مرتد، يستتاب فإن تاب وإلا قتل»[١].

وهذا النوع من الكفر موجود في الليبرالية، لأن من مفاهيم الليبرالية المتعلقة بالحرية «منع التحريم»، أو «منع المنع»، فلا يمكن أن يجتمع الفكر الليبرالي مع التحريم الإلهي المقيد لحرية الفرد، كما يقول جون مل :«إن التحريم يمس حرية الفرد لأنه يفترض الفرد لا يعرف مصلحة نفسه» ومن بديهيات الليبرالية «إباحة الربا»، وهي إباحة عقائدية، وليست مجرد ممارسات عملية، ولا يمكن أن يكون الرجل ليبرالياً وهو يعتقد تحريم الربا، والبيوع المنهي عنها لأن هذا يتعارض مع حرية التجارة والاقتصاد، كما أنه لا يمكن أن يكون ليبرالياً وهو يعتقد تحريم الزنا والتبرج والشذوذ

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٤٠٥

الجنسي لأنّ هذا يناقض الحرية الشخصيّة.

والليبرالية مذهب فكري يحدد للفرد الممنوع واللازم قبل أن يكون ممارسة عملية، فهو اعتقاد وتصور واعٍ لسائر أنماط الحياة البشرية.

٢ - كفر الشك :

الشك هو عدم اليقين، والتردد بين شيئين، وعدم القطع بالصحة أو البطلان، أو الخطأ أو الصواب، ونحو ذلك، وعدم وجود القطع واليقين هو من الريب والشك.

ومن أساسيات الإسلام وجود اليقين في التوحيد والإيمان، فالتوحيد والإيمان لا يغني فيه إلا اليقين الجازم، ولهذا عدّه العلماء شرطاً أساسياً من شروط لا إله إلاّ الله.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فاشترط في صحة إيمانهم عدم الريبة، وهي الشك والظن [١]، ولهذا جاء الشك والريب وصفا للمنافقين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) انظر: لسان العرب مادة «ش ك ك»

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وجاء في الحديث: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[١]. وجاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[٢].

«فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط»[٣].

ويدخل في ذلك من شك في أمر من أمور الغيب كأركان الإيمان أو الجن أو القدر أو غيرها، وكذلك من شك في كفر المشركين الأصليين أو الكفار الواضح كفرهم كالباطنية وغلاة المتصوفة بعد معرفة عقائدهم[٤].

---

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً - رقم ١٣٧(١ / ١٦٨ شرح النووي)، ١٣٨ (١/ ١٧١)، ١٣٩(١/ ١٧٢)، وأحمد في المسند (٢ / ٤٢١)، (٣/ ١١).

(٢) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من ما ت على التوحيد دخل الجنة قطعاً - رقم ١٤٦ (١ / ١٨٠ شرح النووي).

(٣) معارج القبول ١/ ٣٧٨-٣٧٩ .

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٢/ ٣٦٨

يقول القاضي عياض: «من أضاف إلى نبينا الكذب فيما بلغه وأخبر به، أو شك في صدقه أو سبه .. فهو كافر بالإجماع .. ونكفّر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك»(١). وكفر الشك موجود في الليبرالية، فالحرية الفكرية تقتضي عدم الجزم بصحة أمر أو بطلانه، لأن الجزم يوصل للمصادرة لآراء الآخرين.

ويعد من المصادرة للآخر ـ عندهم ـ اعتقاد كفر غير المسلمين والبراءة منهم، ويعتبرون هذه الوثوقية (اليقين) ضد حرية التفكير.

والفكر الليبرالي لا يعتقد عقائد جازمة غير حق الفرد في الحرية الفردية مهما توصل له من أفكار وعقائد وآراء، فهو لا يملك عقيدة يقينية محددة، لأن كل عقيدة قابلة للتغيير، ومن حق الآخر أن يعتقد خلافها، وهذا الفكر لا يملك جواباً محدداً على أوضح الأمور مثل وجود الله تعالى وربوبيته،

---

(١) الشفا ٢/ ١٠٦٩-١٠٧١

لأن المنهج السيّال الذي يعتمد عليه يجعل كل أمر قابل للصواب أو الخطأ، وربما أوصلت المنهجية الليبرالية إلى عقائد متناقضة.

وبهذا يتبين أن الليبرالية تصحح العقائد المتناقضة، والأفكار المتعارضة، ولا تجزم بحقيقة عقدية، وتبني قاعدة «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب»، وتجعل ذلك قاعدة عامة في أصول العقائد، وسائر الأديان.

فالمنتسب للإسلام منهم يعتقد أن إسلامه صحيح يحتمل الخطأ، وعقيدة الآخر (الكافر) خطأ يحتمل الصواب، ويرفضون الجزم العقائدي في جانب الصحة أو البطلان[١]. وهذا هو الشك بعينه.

٣- كفر الإباء والامتناع:

حقيقة الإباء والامتناع هي عدم الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى وشرعه، ومن المعلوم أن الإيمان يتضمن أخبار تقتضي التصديق، وأوامر تقتضي الانقياد والتسليم، ومناقضة

---

(١) انظر مثلاً: مجلة قضايا إسلامية معاصرة، عدد (٣١، ٣٢) (شتاء وربيع ٢٠٠٦م).

التصديق يكون بالتكذيب، ومناقضة الانقياد والتسليم يكون بالإباء والامتناع[١].

وقد ينضاف إلى الإباء والامتناع «الاستكبار» مثل كفر إبليس وفرعون واليهود[٢]، وقد يكون الإباء والامتناع دون «استكبار»[٣].

وقد قرر أهل العلم أن الطائفة الممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب قتالها، وأجمعوا على ذلك، كما فعل الصحابة مع الممتنعين عن أداء الزكاة، وقد رجّح شيخ الإسلام ابن تيمية أن الطائفة الممتنعة إذا قاتلهم الإمام على ذلك فقاتَلوه فهم كفار وليسوا بغاة[٤].

وقد ذكرهم «البخاري»[٥] في كتاب استتابة المرتدين

---

(١) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ١٨٠

(٢) انظر: مدارج السالكين ١/ ٣٦٦، ومعارج القبول ٢/ ٢٢-٢٣

(٣) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ١٨٣

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨-٥٥١

(٥) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام، الحافظ المتقن، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، ولد ببخارى سنة ١٩٤هـ-٨١٠م، نشأ يتيماً وتنقل في الأمصار لطلب العلم، من تصانيفه: «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري، وهو أول من وضع في الإسلام =

فقال: «باب قتل من أبى قبول الفرائض، وما نسبوا إلى الردة» ثم ساق قصة قتال أبي بكر الصديق لأهل الردة ومانعي الزكاة[١].

ولا ريب أن الفكر الليبرالي يؤسس للامتناع عن شرائع الإسلام في مجال السياسة والاقتصاد، ولهذا تكونت الدول الليبرالية بعيدة كل البعد عن شرائع الإسلام في نظمها السياسية والاقتصاد.

ومن ذلك امتناع الدول الليبرالية من تطبيق الحدود والعقوبات الشرعية، وكذلك الامتناع عن تحريم الربا في البنوك والمؤسسات المالية، وهكذا.

٤ - الحكم بغير ما أنزل الله:

والمراد هنا: تشريع القوانين الوضعية المضادة لشريعة الله

= كتاباً على هذا النحو، و«التارخ» و«الأدب المفرد» و«خلق أفعال العباد» توفى بخرتنك (من قرى سمرقند) سنة ٢٥٦هـ - ٨٧٠م. سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩١ - ٤٧١).

(١) رواه البخاري - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة - رقم ٦٩٢٤، ٦٩٢٥ (١٢ / ٢٨٨ مع الفتح).

أو استحلال الحكم بغير ما أنزل الله(١) ـ وقد تقدم الكلام في الاستحلال ـ، وليس المعني في هذه الفقرة: القاضي الملتزم بتحكيم الشرع ثم يحكم بهواه وشهوته دون تغيير أو تبديل للأحكام.

والتشريع حق خاص لله تعالى، وهو الأمر الشرعي في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، ومن نصب نفسه مشرعاً من دون الله تعالى فقد نازع الله في ربوبيته كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وحقيقة فعلهم أنهم أحلوا الحرام، وحرموا الحلال فاتبعوهم على ذلك.

وقد أوجب الله تعالى الحكم بشريعته، وجعله من العبادة فقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧]

---

(١) انظر: حول استحلال الحكم بغير ما أنزل الله مجموع الفتاوى ٢٧/٥٨، الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه ص/ ١٦٥

وبين خطورة الإعراض عن الحكم بالشريعة فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران :٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١]، **والكفر الأكبر في الحكم بغير ما أنزل الله ثلاثة أنواع**(١):

الأول: استحلال الحكم بغير ما أنزل الله، وهذا أمر متفق عليه، ويدخل فيه: جحد أحقية حكم الله ورسوله، أو اعتقاد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، أو اعتقده مثله، أو اعتقد جواز الحكم بما يخالفه، أو اعتقد أن حكم الله ورسوله لا يصلح للتطبيق في زمن الحداثة، أو أنه سبب التخلف، أو أن الإسلام لا يتضمن منهجاً للحكم، لأن الدين علاقة روحية بين العبد وربه، ونحو ذلك من العقائد المرتبطة

---

(١) انظر: الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه ص/ ١٥٩-٢١٠

بالاستحلال[(١)].

الثاني: التشريع المخالف لشرع الله تعالى، ويكون ذلك بتبديل الأحكام وتغييرها، وهذا ما يحصل في الأنظمة الديمقراطية حيث يرون أن المشرّع هو الشعب.

يقول الشيخ «محمد بن إبراهيم آل الشيخ»[(٢)] عن هذا النوع: «وهو أعظمها وأشملها، وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية: إعداداً وإمداداً وإرصاداً، وتأصيلاً وتفريعاً، وتشكيلاً وتنويعاً، وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي

---

(١) انظر: تحكيم القوانين ص/ ٥ـ٦، مجموع فتاوى ابن باز ١/ ١٣٧، ٤/ ٤١٦

(٢) محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مفتي الديار السعودية الأول، ولد في الرياض سنة ١٣١١هـ ـ ١٨٩٣م، وبها تعلم، فقد بصره في الحادية عشرة من عمره، عيّن مفتياً للمملكة، ثم رئيساً للقضاة، فرئيساً للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورئيساً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ورئيساً لتعليم البنات في المملكة، من مصنفاته: «تحكيم القوانين» و«الجواب المستقيم» توفى في الرياض سنة ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩م. الإعلام (٥ / ٣٠٦).

القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة»[١].

ويدخل في هذا من جعل لنفسه حق التشريع، أو وضع نظاماً وضعياً يحكم به غير الشريعة الإسلامية.

الثالث: طاعة المبدلين مع علمهم أنهم خالفوا شريعة الله وحكمه[٢]

---

(١) تحكيم القوانين ص/ ٦-٧، وقد نقل الدكتور المحمود نصوص خمسة عشر عالماً يكفرون هذا النوع من الحكم بغير ما أنزل الله، انظر ص/ ٧٥-٢٠٤.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه ص/ ٢٠٥-٢٠٩.

والليبرالية هي عبارة عن اجتماع لهذه الأنواع المكفرة جميعاً، لأنها تستحل الحكم بغير ما أنزل الله، وتعتبر أن من حق الفرد أن يشرع لنفسه ما يعتقد أنه الأصلح له، ولهذا فإن النظام السياسي المبني على الفكرة الليبرالية هو النظام الديمقراطي، وهو نظام يعتمد على أن الشعب هو مصدر التشريع الوحيد، وأن الدين لا دخل له في الحكم فهو مجرد علاقة روحية بين العبد وربه.

وكل من تصور الليبرالية، وعرف حقيقتها فإنه يجزم أنها لا تعترف بحكم الله، ولا تقر بشريعته، وترى أن الحرية الإنسانية كافية في إصدار التشريعات دون الرجوع إلى جهة إلهية خارج نطاق العقل الإنساني.

ولا ريب أن مقاييس علماء الإسلام في أحكام الكفر تنطبق عليها (الليبرالية) بمجرد معرفة حقيقة الفكرة وتصورها، ومن هذه الأحكام أنها حكم بغير ما أنزل الله استحلالاً أو تشريعاً.

ولو قال قائل: إن الليبرالية تطبق شريعة الله وحكمه في الحدود والأموال والأسرة وغيرها لأضحك على نفسه كل باحث يعرف مفهوم الليبرالية وتاريخها ومرجعيتها.

وقد تقدم معنا عرض تفصيلي عن الليبرالية اتضح لنا فيه أن الليبرالية عقيدة في الحرية الفردية تعتمد على العقلانية المنكرة للوحي، والمادية المضادة للقيم والأخلاق.

٥- شرك القصد والإرادة[١]:

عندما خلق الله تعالى الإنسان خلقه وله إرادة وقصد في كل وقت. فكل عمل يقوم به الإنسان من أعماله الاختيارية لا بد أن يكون أراده وقصده قبل ذلك. وهذه طبيعة نفسية فطر الله تعالى عليها الإنسان.

وهذه الإرادة قد تكون لله تعالى فتكون حينئذ توحيداً خالصاً، وقد تكون لغير الله تعالى فتكون حينئذ شركاً خالصاً. وهي مهيأة لأن تكون على التوحيد أو الشرك. أما أن تكون النفس مريدة وليست على التوحيد ولا على الشرك فمحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكل من استكبر عن عبادة الله، لا بد أن يعبد غيره، ويذل له. فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام».

---

(١) انظر: العبودية لابن تيمية، كاملاً.

فالحارث: الكاسب الفاعل، والهمام: فعال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائماً، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه. فلا بد لكل عبد من مراد محبوب، هو منتهى حبه وإرادته. فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده ويستذله غير الله، فيكون ذليلاً لذلك المراد المحبوب: إما المال[1]، وإما الجاه[2]، وإما الصور[3]، وإما يتخذه إلهاً من دون الله كالشمس، والقمر، والكواكب، والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين أو من الملائكة والأنبياء والأولياء الذين يتخذهم أرباباً، وغير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبداً لغير الله كان لا بد مشركاً، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن

---

(١) انظر في عبودية المال والجاه: العبودية ص/ ٢٧، وشرح حديث: «ما ذئبان جائعان» لابن رجب الحنبلي، كاملاً.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر في عبودية الصور: العبودية ص/ ٣١،والجواب الكافي لابن القيم، كاملا .

عبادة الله. وكان مشركاً...

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقراً وحاجة إلى مراده المحبوب الذي هو مقصود قلبه بالقصد الأول، فيكون مشركاً لما استعبده من ذلك، ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله مولاه، الذي لا يعبد إلا إياه»(١).

وعلى هذا: فمن جعل الله تعالى همه وغاية مراده وقصده فهو محقق للتوحيد، لأن الإرادة الناشئة عن محبة الله تعالى والافتقار إليه وجعله غاية القصد هي أصل التأله والتعبد له تعالى، وإذا لم تكن إرادة الإنسان وهمه وقصده لله تعالى فلا بد أن تكون لغيره، وخلوّ القلب من هذا وذاك أمر مستحيل، وهذا الغير يكون حينئذ شريكاً لله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك،

---

(١) العبودية ص/ ٣٨-٣٩.

بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحبّ مطلق، فيهوى كل ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ به عطفه وماله... فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله، ومن لم يكن محباً خالصاً لله عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله. وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه»[١].

ومن المعلوم أن الإنسان همام حارث ولا بد له من إرادة واختيار فإما أن يختار الله والدار الآخرة، وإما أن يختار الدنيا وزينتها فتكون هي غاية مطلبه ونهاية سعيه.

ولهذا نلاحظ المقابلة بين الإيمان بالله والدار الآخرة وبين التعلق بالدنيا والركون لها، وفي ذلك دلالة قوية على أن من لم يرد الله والدار الآخرة فهو مريد للدنيا وزينتها.

وعلى هذا: فمن اتبع هواه مطلقاً، وانصرف إلى الدنيا

---

(١) العبودية ص/ ٥٢-٥٣

وآثرها، فقد أصبح عبداً لها، مشركاً في الألوهية، خالداً في النار، ويدل لذلك: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]. وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ [الإسراء:١٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]. وهذا الشرك المخرج من الملة هو عندما يكون الباعث له على العمل وقصده منه إرادة الدنيا وقصدها.

وهذا الشرك ينطبق على الليبرالية لأنها اتباع تام للهوى والرغبة، وإيثار للدنيا وحطامها الفاني، وهو ما نجده في الكلام حول الحرية الشخصية، أو التطبيقات الرأسمالية الجشعة التي تدل على أن الباعث للعمل هو قصد الدنيا

وإرادتها، فلا يمكن أن يقال إن الفكر الليبرالي يوصل لإرادة الله تعالى وقصد طاعته.

ثانياً: قوادح الأخلاق في الليبرالية:

لقد بُنيتْ الليبرالية على أساس مادي لا يرتبط بالقيم والأخلاق، وقد تبين لنا فيما تقدم أثر الحرية الفردية على المجتمع الغربي، فالأنانية واتباع الهوى، وما يترتب عليهما من انعكاسات أمور محمودة عندهم لأنها تحقيق لذاتية الإنسان وفرديته، وهذا ما أوصل المجتمع إلى التعامل بطريقة غير أخلاقية في سياسته واقتصاده، فقد أصبح الحديث عن الأخلاق في مجال المال والاقتصاد مثار سخرية وتندر لدى الليبراليين لأنه لا مجال للحديث عن القيم الأخلاقية في الأمور الاجتماعية، فالأخلاق هي العمل أياً كان تقويمه من حيث الجودة أو الرداءة، فالإنسان الأخلاقي هو الإنسان المنتج، وهذا ما جعل الأخلاق لا قيمة لها في الحقيقة. فانتشرت بسببها: الأثرة، والظلم، واتباع الهوى.

* * *

شــــبهات وردود

يردد بعض المفتونين بالليبرالية عددًا من الشبهات يُعارضون بها الحكم السابق عليها، منها :

الشبهة الأولى: شبهة التكفير:

وهذه الشبهة تظهر في الحكم على كل مذهب إلحادي يفد على البلاد الإسلامية، حيث يقولون: إن بعض الليبراليين ينطقون الشهادتين، ويصلون، ويؤدون الشعائر التعبدية، والقول بأن الليبرالية عقيدة كفرية يكون بمثابة تكفير المسلمين، وهذه هي عقيدة الخوارج الضالين.

ونجيب عن هذه الشبهة بأن ثبوت الإسلام للإنسان يشترط له بالإضافة إلى الإتيان بالواجبات المذكورة في الشبهة وغيرها: ترك النواقض والمبطلات لحقيقة الإيمان والإسلام، فمن يأتي بهذه الواجبات، وهو قائم على نواقض الإيمان، فإنها لا تنفعه حتى يترك النواقض.

ولهذا حذرت الشريعة الإسلامية من «نواقض الإيمان»، وبينت خطورتها، فقد يكفر الإنسان ويخرج من الملة، وهو لا يزال يشهد أن لا إله إلا الله ويؤدي بعض الواجبات، وهذه

حقيقة شرعية قطعية.

وهذه الحقيقة موجودة في كل دين، لأنه ما من دين إلا ويوجد له نواقض إذا وجدت بطل أصل هذا الدين، وكذلك الأمر في العبادات كالصلاة والوضوء وغيرها لو أتى الفرد بواجباتها وارتكب مبطلاتها لم تنفعه هذه الواجبات.

ومن المعلوم المجمع عليه عند أهل السنة والجماعة أن لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) شروطاً عظيمة وليست مجرد كلمة تقال بالألسن، ومن هذه الشروط: الانقياد والقبول والتسليم والإخلاص وغيرها.

ولهذا لم يعتبر الرسول ﷺ إقرار الحبرين من اليهود بأنه «رسول الله» لأنهما لم يلتزما بالإسلام، وفي الحديث أنهما: قبّلا يديه، وقالا نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكما أن تتبعاني، قالا: إن داوود عليه السلام دعا ألا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود[1].

---

(١) رواه النسائي – كتاب تحريم الدم – باب السحر – رقم ٤ (٧ / ١١)، وكذا في الكبرى – كتاب المحاربة – باب السحر – رقم ٣٥٤١ (٢/٣٠٦)، وأحمد في المسند (٤ / ٢٣٩)، وفي الفتح الرباني (١٨/ ١٩٧)، ومصنف ابن أبي شيبة – كتاب المغازي – باب من رأى النبي ﷺ قبل النبوة، =

وهكذا أقر أبو طالب بصدق دينه في قوله:

ودعوتي وعلمتُ أنك ناصحي
فلقد صدقت وكنت قِدْم أمينا
وعرضتَ ديناً قد عرفتُ بأنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامةُ أو حذاري سُبَّةً
لوجدتني سمحاً بذاكَ مبينا[١]

ومثله إقرار هرقل بنبوته عليه الصلاة والسلام[٢]، لأنه إقرار باللفظ لا يتضمن التزام عملي (القبول والانقياد والتسليم).

وقد قاتل رسول الله ﷺ قومه وعموم العرب عندما رفضوا

= رقم ٣٦٥٢٩ (٧/ ٣٢٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني - رقم ٢٤٦٥ (٤/ ٤١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨ / ١٦٦) وفي الجهاد (٢/ ٦٤٩) مختصراً، وأبو داود الطيالسي في مسنده (١٦٠)، والطحاوي في مشكل الآثار - رقم ٦٣ و٦٤(١/ ٥٥)، والطبراني في الكبير - رقم ٧٣٩٦(٨/ ٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٧)، وانظر تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية عليه في الإيمان ص / ١٣٥.

(١) السيرة النبوية ـ لابن كثير ـ ١/ ٤٦٤.

(٢) رواه البخاري -كتاب بدء الوحي ـ باب ٧ (١ / ٤٢ مع الفتح).

معنى (لا إله إلا الله) وقالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب»، ولم يفعل ذلك لمجرد اللفظ، وهذا ما فهمه المشركون في زمانه، ولهذا لم يقبلوا ولم ينقادوا.

وهذه الشبهة تدل على عدم الفهم الصحيح للإسلام، وأنه التزام حقيقي، وجهاد للباطل وأهله، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لمن خاف من القتال في سبيل الله «لا صدقة ولا جهاد بماذا تدخل الجنة» والسيرة العملية للقدوة عليه الصلاة والسلام تبين حقيقة الإسلام والإيمان[١]، فهي تفسير واقعي لحقيقة الإيمان في كافة المجالات: في النفس والمجتمع الإسلامي، والعلاقة بالآخر (الكافر/ والمنافق)، وفي الحكم والاقتصاد وغيرها من المجالات.

ومن جهة أخرى فإن التكفير الوارد حول هذا المذهب يقع على العقائد، والأفكار، والآراء التي يتضمنها، وهذا يسمى «كفر النوع»، وهو تحرير المسائل الكفرية دون النظر للمعيّنين، أما الفرد المعيّن فإن وجدت فيه هذه العقائد والأفكار، والآراء، فإنه لا بد من توفر شروط التكفير فيه

(١) انظر توضيح هذه القضية في: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ١/ ٣٧ وما بعدها.

وانتفاء موانعه عنه[١].

هذا في حال تلبسه بهذه المكفرات، أما مجرد الانتماء لهذا المذهب وحده، فهو غير كافٍ في اعتباره متلبساً بهذه المكفرات، لأن الواقع يشهد بأنه يوجد من ينتمي إلى مذهب فإذا سئل عنه، وصفه بغير حقيقته دون إقرار بالمكفرات التي هي مناط الكفر.

وبناء على ذلك فإن المعينين تختلف أحوالهم، وأوضاعهم، ولكن العقائد والأفكار تبقى ثابتة يمكن أن يطلق عليها حكم محدد، ولا يعكر على ذلك اختلاف أحوال المعينين وأحكامهم.

وكلامنا في هذا الفصل يكون حول العقائد والأفكار، وليس عن المعينين فلهم شأن آخر.

وهذا أمر معروف عند علماء السلف الصالح حيث يطلقون وصف الكفر على المقالة، ويبينون وجه مناقضتها لأصل الدين دون أن يقتضي هذا تكفير كل معيّن يقول بهذه المقالة، فضلاً عن تكفير المنتمي لفرقة تقول بها لمجرد

---

(١) مثل قيام الحجة وانتفاء الشبهة والتأول، وعدم الإكراه ونحوها انظر: ضوابط التكفير ص٢٧٥-٣٨٥ط٢ / ، ونواقض الإيمان الاعتقادية ٢/ ٢٠١-٣١٣.

انتمائه[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فقد يكون الفعل أو المقالة كفراً، ويطلق القول بتكفير من قال تلك المقالة، أو فعل ذلك الفعل، ويقال: من قال كذا فهو كافر، أو من فعل كذا فهو كافر. لكن الشخص المعين الذي قال ذلك القول أو فعل ذلك الفعل لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها.

وهذا الأمر مطرد في نصوص الوعيد عند أهل السنة والجماعة، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بأنه من أهل النار، لجواز أن لا يلحقه، لفوات شرط أو لثبوت مانع»[2]، وقد حذر علماء السلف[3] من إطلاق تكفير المعين دون بينة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ

---

(١) انظر مثلاً: مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٨٨-٤٨٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦٥

(٣) انظر: فتح الباري ١٠/ ٤٦٦، ٥١٥، وشرح الطحاوية ص/ ٣٥٧-٣٥٨، ومجموعة التوحيد ١/ ٥٤

لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤][١]

وبقوله ﷺ: «**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما**»[٢]، يقول الشاطبي: «والحاصل أن المقول له إذا كان كافراً كفراً شرعياً فقد صدق القائل وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرّة ذلك القول وإثمه»[٣].

والتكفير حكم شرعي تترتب عليه لوازم في الدنيا والآخرة، فيجب الاحتياط فيه، والحذر من الاستعجال فيه، ولهذا قد تكون المقالة كفراً ناقلاً عن الملة، ولا يكون القائل بها كافراً إذا لم تقم عليه الحجة أو كان متأولاً.

يقول ابن تيمية: «ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمر يقولون بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يُرى في الآخرة وغير ذلك، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم

---

(١) انظر تفسير هذه الآية: تفسير القرآن العظيم، وفتح القدير.

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب من أكفر أخاه من غير تأويل فهو كما قال - رقم ٦١٠٣ (١٠/ ٥٣١ مع الفتح) ط ٢ دار البيان ،
و مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر - رقم ٦٠ (٥٦) صـ٥٧، وأحمد في المسند (٢/ ٤٧)، (٢/ ١٠٥).

(٣) نقلاً عن فتح الباري ١٠/ ٤٦٦

ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق، وغير ذلك، ولا يولون متولياً، ولا يعطون من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ﷺ ولا جاحدين لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك»[1]، ولكن هذا لا يعني أن المعين لا يكفر إذا وجدت فيه الشروط، وانتفت عنه الموانع، فإنه إذا تم التأكد من ذلك يكفر بعينه، فقد أفتى علماء الإسلام بردة عدد ممن أعلنوا الكفر وتحققت فيهم شروط الكفر[2]، ويدخل في

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٣٤٨-٣٤٩، وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى ٢١/ ٥٠٠-٥٠١

(٢) فقد أفتى علماء السلف بكفر الجهم بن صفوان، وشيخه الجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي، انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/ ٣١٩، والرد على الجهمية - للدارمي -، ص/ ٣٥٢، ٣٥٣ ومثلهم ابن عربي والحلاج وطواغيت التصوف انظر: تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي - للبقاعي -، كما أن الأزهر أفتى بكفر عدد من العلمانيين والليبراليين مثل فرج فودة، نصر أبوزيد، وحيدر حيدر وغيرهم.

هذا الصدد قتال الصحابة للمرتدين، وفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في قتال التتار وتكفيرهم[١]، وغيرهم[٢].

أما تكفير المذاهب الإلحادية المعاصرة فهو أمر ضروري لتعلم الأمة الإسلامية خطورة هذه المذاهب وتحذر منها، ومن ذلك: ما قرره مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي[٣] من تكفير «العلمانية»، وهي المنبع الذي خرجت منه سائر المذاهب المعاصرة بما فيها «الليبرالية» **وينص القرار على ما يلي:**

«**أولًا**: إن العلمانية (وهي الفصل بين الدين والحياة) نشأت بصفتها رد فعل للتصرفات التعسفية التي ارتكبتها الكنيسة.

ثانيًا: انتشرت العلمانية في الديار الإسلامية بقوة الاستعمار وأعوانه، وتأثير الاستشراق، فأدت إلى تفكك في الأمة الإسلامية، وتشكيك في العقيدة الصحيحة، وتشويه تاريخ أمتنا الناصع وإيهام الجيل بأن هناك تناقضًا بين العقل

---

(١) انظر: الفتوى كاملة: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٠١-٥٤٣

(٢) انظر: مجموعة التوحيد١/ ٥٠١ وما بعدها.

(٣) الدورة الحادية عشر المنعقدة باليمامة في دولة البحرين من ٢٥-٣٠ رجب ١٤١٩هـ، ١٤-١٩ نوفمبر ١٩٩٨م

والنصوص الشرعية، وعملت على إحلال النظم الوضعية محل الشريعة الغراء، والترويج للإباحية، والتحلل الخلقي، وانهيار القيم السامية.

ثالثًا: انبثقت عن العلمانية معظم الأفكار الهدامة التي غزت بلادنا تحت مسميات مختلفة كالعنصرية، والشيوعية والصهيونية والماسونية وغيرها، مما أدى إلى ضياع ثروات الأمة، وتردي الأوضاع الاقتصادية، وساعدت على احتلال بعض ديارنا مثل فلسطين والقدس، مما يدل على فشلها في تحقيق أي خير لهذه الأمة.

رابعًا: إن العلمانية نظام وضعي يقوم على أساس من الإلحاد يناقض الإسلام في جملته وتفصيله، وتلتقي مع الصهيونية العالمية والدعوات الإباحية والهدامة، ولهذا فهي مذهب إلحادي يأباه الله ورسوله والمؤمنون.

خامسًا: إن الإسلام هو دين ودولة ومنهج حياة متكامل، وهو الصالح لكل زمان ومكان، ولا يقر فصل الدين عن الحياة، وإنما يوجب أن تصدر جميع الأحكام منه، وصبغ الحياة العملية الفعلية بصبغة الإسلام، سواء في السياسة أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو التربية، أو الإعلام وغيرها.

التوصيات:

يوصي المجمع بما يلي:

أ - على ولاة أمر المسلمين صد أساليب العلمانية عن المسلمين وعن بلاده، وأخذ التدابير اللازمة لوقايتهم منها.

ب - على العلماء نشر جهودهم الدعوية بكشف العلمانية، والتحذير منها.

جـ - وضع خطة تربوية إسلامية شاملة في المدارس والجامعات، ومراكز البحوث وشبكات المعلومات من أجل صياغة واحدة، وخطاب تربوي واحد، وضرورة الاهتمام بإحياء رسالة المسجد، والعناية بالخطابة والوعظ والإرشاد، وتأهيل القائمين عليها تأهيلًا يستجيب لمقتضيات العصر، والرد على الشبهات، والحفاظ على مقاصد الشريعة الغراء.»

وفي السياق نفسه فقد أصدر مجلس علماء اندونيسيا فتوى بكفر الليبرالية[1]، ونصت الفتوى التي صدرت في

---

(١) جاءت هذه الفتوى ضد منظمة جديدة في اندونيسيا تسمى «شبكة الإسلام الليبرالي»، وهي منظمة مدعومة من الولايات المتحدة، وقد بدأت الحكومة الأمريكية بتطبيق خطة مركز راند بهذه المنظمة، والمؤسسة العربية للتحديث الفكري.

ختام مؤتمر المجلس السابع على أن «التعاليم الدينية المتأثرة بالأفكار العلمانية والليبرالية هي تعاليم منافية لحقيقة الدين الإسلامي، وعلى المسلم أن يعتقد أن دين الإسلام هو الدين الحق، وأن ما سواه هو الباطل»[(١)].

الشبهة الثانية: أن الليبرالية مجرد آلة وليست عقيدة:

هذه الشبهة تقوم على أن الليبرالية ليست عقيدة يمكن أن توصف بالإيمان أو الكفر، وإنما هي مجرد آلة عصرية يمكن الاستفادة منها لتحديث المجتمع وتطويره.

ويبدو على هذه الشبهة أسلوب المخادعة، والهروب من الحقيقة، فإن من يدرس الليبرالية يتبين له أنها عقيدة فكرية متكاملة، وفلسفة مادية إلحادية، فدعوى أنها مجرد آلة هي هروب مما تتضمنه الليبرالية من مناقضة لأحوال الإسلام، وهذه الدعوى لا يوافق عليها أحد من مفكري الليبرالية المعروفين.

وإذا كان بعض الليبراليين يخادع نفسه بادعاء أن الليبرالية مجرد آلية فإن منهم من يصرح بأنها منهج للحياة كما فعل

---

(١) انظر: الخبر في (الجزيرة نت/ تقارير وحوارات/ الأحد ٢/ ٧/ ١٤٢٦هـ الموافق ٧/ ٨/ ٢٠٠٥/).

الدكتور محمد الرميحي في قوله : «ومع أن الليبرالية هي مفهوم فلسفي، وطريقة تفكير وموقف من الحياة أكثر منها آلية محددة للحكم، فإن الديمقراطية في معناها الشامل هي النتيجة الطبيعية للفكر الليبرالي»[1].

وقد تقدم الكلام على حقيقة الليبرالية وأسسها الفكرية، وبه يتبين أن الليبرالية منظومة فكرية متكاملة، وعقيدة سياسية واقتصادية محددة، وليست مجرد آلة كما يزعم البعض.

الشبهة الثالثة : أن الليبرالية تشتمل على بعض الايجابيات :

وترى هذه الشبهة أن الليبرالية مشتملة على أمور ايجابية مثل إكرام الإنسان، وعدم إهدار حقوقه، وشحذ الدافع الذاتي (الفردية) للإنسان مما ولد المنافسة القوية بين الشركات الكبرى بحيث توصلت من خلال هذه المنافسة إلى تحريك الاقتصاد، واكتشاف المخترعات الحديثة المفيدة للإنسان، هذا بالإضافة إلى المشاركة السياسية، والحرية في مؤسسات المجتمع، والصحافة، وتكوين الأحزاب والمعارضة وغيرها،ولا يمكن أن يكون هذا معارض للإسلام.

---

(١) مجلة حوار العرب، عدد (١٧)، إبريل ٢٠٠٦م، ص/ ٥ .

ويمكن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه عدة:

أولاً: أن وجود بعض الإيجابيات لا يدل على صحة هذا المذهب أو ذاك، لأنه ما من فكر باطل أو بدعة مخترعة إلا ويوجد فيها شيء من الحق كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران٧١]، فلا يكاد يوجد مذهب إلا وهو مشتمل على بعض الإيجابيات، ولكن ذلك لا يستلزم الصحة كما قال تعالى عن الخمر والميسر ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثانياً: أن سلبيات الليبرالية ومساوئها أكثر، وأعظمها الكفر والشرك بالله تعالى، والأثرة، واتباع الهوى، والظلم للفقراء والطبقات المتدنية، والحروب، والاحتلال وغيرها.

ثالثاً: أن إيجابيات الليبرالية لا تخلو من جوانب سلبية، لأنها حريات مفتوحة غير منضبطة فحقوق الإنسان فتح مجال الإلحاد(١)، والفساد الأخلاقي إلى درجة الشذوذ(٢)،

---

(١) والمذاهب الفكرية الغربية الآن شاهد على ذلك.

(٢) والوضع الاجتماعي الغربي الآن يدل على ذلك مثل قضية الرقيق الأبيض،=

والفردية أصبحت شحا مطاعاً، وهوى متبعاً، وأنانية مقيتة، والديمقراطية رفعت أصحاب رؤوس الأموال، وجعلتهم يتحكمون في المجتمع بأموالهم.

رابعاً: أن أي صفة إيجابية في مذهب باطل فإنها موجودة في دين الإسلام بأحسن وأكمل وأنقى من النقص من غيره، وهذا من كمال الدين وتمامه المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وغيرها فلا نحتاج إلى أن ننقل من المناهج والمذاهب المنحرفة بحجة وجود إيجابيات فيها، فلا خير إلا وقد دلنا له الإسلام ولا شر إلا حذرنا منه، فكل خير موجود في الإسلام دون أي شائبة.

= وتشريع أنماط جديدة من الأسرة مثل: رجل ورجل، وامرأة مع امرأة، وامرأة وحيوان، والعكس وغيرها والمؤتمرات الدولية حول المرأة تدل على ذلك أيضاً.

الشبهة الرابعة : قول بعضهم : سنقيد الليبرالية بقيود الشرع !

فلا نقبل منها أي أمر يخالف شريعة الإسلام، حيث نؤقلمها مع عقيدتنا وظروفنا. والجواب: قد قيل مثل هذا ممن أراد الترويج للديمقراطية؛ مدعيًا أنه لن يقبل بالتصويت على أمر مخالف للإسلام، وأنه .. وأنه .. إلى آخر القيود، فقيل لها: إذا قيدتها بهذه الأمور فلا تسميها «ديمقراطية»؛ لأنها لن تكون كذلك ! سمها إسلامًا، ودع هذا التلاعب. ومثل هذا يقال لمن أراد أن يقيد الليبرالية بقيود الشرع؛ لأنها ستكون شيئًا آخر غير الليبرالية. والله الهادي.

* * *

سياسة الملك عبدالعزيز والعلماء في تحقيق الأمن الفكري للسعودية

يقول الله عزوجل مذكرًا عباده المؤمنين بنعمة عظيمة؛ هي نعمة الوحدة الإيمانية والتآلف من بعد التشتت والتفرق: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. تذكرت هذه الآية الكريمة وأنا أتأمل تاريخ بلاد التوحيد قبل توحدها على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله؛ حيث الفرقة، وتنازع الآراء والأهواء، والتباغض بين أهلها؛ إلى أن أذن الله باجتماعهم على الدين القويم. وأتأمل حنكة وسياسة الملك عبدالعزيز ومن معه من العلماء الثقات الذين استطاعوا ـ بفضل الله ـ أن يحافظوا على هذه الوحدة وهذا الانسجام بين أفراد الوطن الكبير؛ رغم تعدد قبائله وتباين مناطقه، وذلك عن طريق نشر الخير بين أهله وربطهم به وبالدعوة إليه، والتصدي بحزم لكل من يهدد الأمن الفكري فيه؛ ممن جبلت نفسه على حب الشقاق والمراء، والسعي لمزاحمة دعوة التوحيد الجامعة

بمختلف الولاءات والطموحات المفرقة.

هذا الحزم في الحق الذي لمسنا ـ كما لمس أجدادنا وآباؤنا ـ آثاره، ونعمنا بنتائجه سنين عددا؛ حيث الولاء الواحد، والأمن البدني والفكري، والتآلف، والطمأنينة والسكينة التي تميز هذا البلد عن غيره .

وتذكرت ـ أيضًا ـ مقولة الأستاذ محمود شاكر متألمًا من الحال التي وصلت إليها بلاده (مصر) من حيث كثرة التنافر بين أهلها؛ عندما قال: (إن تعدد الثقافات في الشعب الواحد قد أفضى إلى شر آثاره؛ حيث تنابذت العقول على المعنى الصحيح، واختلفت المناهج المؤدية إلى الغايات، وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو في بدء لا ينتهي، وفي اختلاف لا ينفضّ)[١].

لقد علم الملك عبدالعزيز ومن معه من العلماء رحمهم الله أن المسلمين من أهل هذه البلاد لا يصلحهم سوى الالتفاف على مبدأ واحد؛ هو الدعوة السلفية التي أنعم الله بها عليهم، والبعد عن كثرة القيل والقال، والخوض فيما لا

---

(١) انظر: «جمهرة مقالات محمود شاكر»، جمع الدكتور عادل جمال، (١/ ١٤٣).

ينفع، والانصراف والاشتغال بما يفيدهم ويفيد بلادهم. ولهذا: قرر رحمه الله التصدي لكل من يريد العبث بمكتسبات هذه البلاد الدينية والدنيوية .

ومن ذلك: أنه في بداية توحيد المملكة نمى إلى علم علماء الدعوة أن البعض بدأ بالتشغيب والتعدي؛ بنشر الآراء الشاذة والفتاوى الفردية التي تبلبل أذهان العوام، وتصرفهم عما ينفعهم، وتوقعهم في التنازع والاختلاف. عندها قرر العلماء رحمهم الله رفع هذا الأمر الخطير للملك عبدالعزيز رحمه الله، الذي أصدر لأجله خطابًا حازمًا صارمًا لإيقاف دعاة الفتنة عند حدهم .

يقول العلماء: حسن بن حسين، وسعد بن عتيق، وسليمان بن سحمان، وصالح بن عبدالعزيز، وعبدالرحمن بن عبداللطيف، وعمر بن عبداللطيف، وعبدالله بن حسن، ومحمد بن إبراهيم بن عبداللطيف، وكافة آل الشيخ في خطابهم :

(... ولاينبغي لأحد من الناس العدول عن طريقة آل الشيخ رحمة الله عليهم، ومخالفة ما استمروا عليه في أصول الدين؛ فإنه الصراط المستقيم، الذي من حاد عنه فقد سلك طريق أصحاب الجحيم. وكذلك في مسائل الأحكام

والفتوى، لا ينبغي العدول عما استقاموا عليه، واستمرت عليه الفتوى منهم. فمن خالف في شيء من ذلك، واتخذ سبيلا يخالف ما كان معلومًا عندهم، ومفتىً به عندهم، ومستقرة به الفتوى بينهم، فهو أهل للإنكار عليه والرد لقوله.

ونحن نعلم: أن المسائل العلمية، والأحكام التي يُحكم بها الناس، والفتاوى التي يُفتَون بها لا تخلو من الخلاف، وهذا أمر يعرفه من له أدنى معرفة، لكن الاختلاف بين الناس خصوصًا في جهة نجد لابد أن يكون سبب شر وفساد وفتنة. وسد باب الشر والفتن والفساد أمر مطلوب في الشريعة؛ بل هو أعظم مقاصدها، كما لا يخفى)[1].

أما الملك عبدالعزيز رحمه الله فقال في خطابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل، إلى من يراه من علماء المسلمين وإخوانهم المنتسبين، وفقنا الله وإياهم لما يحبه ويرضاه، آمين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد ذلك: هذا كتاب إخوانكم المشايخ، تشرفون عليه،

(١) «الدرر السنية» (١٤ / ٣٧٥ – ٣٧٦).

والعمل ـ إن شاء الله ـ على ما فيه، ثم بعد ذلك مهوب خافيكم أول منشأ هذا الأمر وتقويمه، أنه من الله ثم أسباب الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، وأوائلنا رحمهم الله، وما جرى على المسلمين من اختلاف ولايتهم مراراً.

وكلما اختلف الأمر، وشارف الناس لنقض دين الله، وإطفاء نوره، أبى الله وأخرج من هالحمولتين من يقوم بذلك، حتى إن آخرهم والدنا، وشيخنا الشيخ: عبدالله بن عبداللطيف، نرجو الله أن يجبرنا في مصيبتنا فيه، بعز الإسلام والمسلمين، وأن الله سبحانه يظهر في عقبهم من يقوم مقامهم، وأن الله سبحانه يعيضه بنا رضوانه والجنة.

ولهوب خافي أحداً مقامه في آخر هذا الزمان، والتزامه في أمر هذا الفصل، الذي لا حياة إلا به، وصار نوراً وقوة لكل عارف، عاقل في أمر دينه ودنياه، وردع أهل البدع والضلال، ولا نقول إلا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا خيراً، واخلفنا خيراً منها.

ثم بعد ذلك تفهمون: أن أسباب الشر كثيرة، ولا بد أن يحصل من الناس بعض شوفات: أحدٍ يدوّر المخالفة، وأحدٍ

يدوّر التروّس، وأحدٍ جاهل يريد الحق، ولكن خفي عليه سبيل الحق، فاتبع هواه، وهذا أمر كله مخالف للشرع.
والحمدلله: ما حنا في شك من أمر ديننا.

وتفهمون: أنه من حين أظهر الله الشيخ محمد بن عبدالوهاب، في قرن أطيب من وقتنا، ورجال أطيب من رجالنا، وعلماء أطيب من علمائنا، فسدد الله به، وقام بهذه الكلمة، وجدد الله أمر هذا الأصل، وأنقذ الله بأسبابه الناس من الظلمات إلى النور.

فبان أمره لأولي الأبصار، وخفي ذلك على كثير من الناس، وعاند من أزاغ الله قلبه، وأعمى بصيرته. وقبل هذا الحق ورضيه آباؤنا، وأجدادنا، وعلماء المسلمين، فيما أتى به من الأصل والفرع، ويتعين غلينا ـ إن شاء الله ـ أن نقتدي بما اقتدوا به.

ولهوب خافيكم: حال هذا الزمان، وكثرة الطالب والسائل، وقلة البصيرة والفهم. وأيضاً مهوب خافيكم: اختلاف العلماء في أمور الفروع؛ فلابد أن كل إنسان يدّعي المعرفة على جهل: إما أحدٍ يسمع حديثاً، أو قولاً من أقوال العلماء، لا يعرف حقيقته، فيفتي به، أو يكون أحدٍ له مقصد،

يدوّر الأقوال المخالفة؛ مقصوده الخلاف، إما مخالفة أحدٍ من علماء المسلمين، أو يبي يقال: هذا فلان! يدوّر بذلك رياسة، أو شيئاً من أمور الدنيا، نعوذ بالله من ذلك.

فالآن يكون الأمر على ما ذكر المشايخ أعلاه، فمن أفتى أو تكلم بكلام مخالف لما عليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأولاده: عبدالله، وعبدالرحمن، وعبداللطيف، وعبدالله بن عبداللطيف، فهو متعرض للخطر؛ لأننا نعرف أنه ما يخالفهم إلا إنسان مراوز للشر والفتنة بين المسلمين.

فأنتم ـ إن شاء الله ـ يا جميع علماء المسلمين التزموا بهذا الأمر، وقوموا على من خالفه، ومن سمعتم منه مخالفة في قليل أو كثير، ما قدرتم عليه نفذوه، وما لم تقدروا عليه ارفعوه إلينا، إلا إن كان هنا إنسان عنده في مخالفتهم دليل من الكتاب، أو من السنة، فلا يتكلم حتى يعرض أمره على علماء المسلمين، وتعرف حقيقته، فأما المتعرض بغير ذلك، أو قبل تبيين الأمر، فذمتنا وذمة المسلمين بريئة منه، ويكون عنده معلوماً أنه على خطر منا.

ثم أوصيكم، يا علماء المسلمين: بالقيام لله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الناس؛ خصوصاً هذا

الأصل، وأن تجتهدوا وتديموا الجلوس والمباشرة لإخوانكم المسلمين. ومن كان تعلمون منه سداداً، ومنشبته دنيا أو تكاسل، ترفعون أمره إلينا، حتى نلزمه بطلب العلم.

والأمر من ذمتي في ذمتكم، لا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بتعليم الأصل، ولا بردع الجهل والقيام على صاحبه، فلا أنتم بحل مني إذا ما اجتهدتم وقمتم بهذا الأمر، كما أنه الواجب عليكم.

وتفهمون أني إن شاء الله: خادم للشرع، لا بنفسي ولا بما تحت يدي، فافطنوا لموقف بيوقفني الله أنا وأنتم، والعالمين؛ وهذا أمر برئت منه ذمتي وتعلق بذمتكم، نرجو الله أن يعيننا وإياكم على القيام بما يرضيه، وأن يعيذنا وإياكم من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن الله سبحانه ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويجعلنا وإياكم من أنصاره.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

سنة ١٣٣٩هـ[١].

---

(١) المصدر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١٤/ ٣٧٧-٣٨٠)، وكتاب «لسراة الليل هتف الصباح» (ص ٥٢٠ – ٥٢٣) وقد نشر صورة الخطاب.

قلتُ: لقد علم العلماء والملك ـ رحمهم الله ـ أن حمل الناس على قول اجتهادي واحد تؤيده الأدلة الشرعية؛ فيه من الحكمة الشيء الكثير؛ لأنه الأصلح للناس والأوفق بهم، بدلا من ترك الأمر فوضى، وكلأ مباحًا لكل أحد، بدعوى (في المسألة قولان)!! أو(حرية الرأي)!! أو(التعددية)!! ... الخ الزخارف اللفظية التي لم يجن منها المسلمون سوى المزيد من التناحر والتشرذم .

نعم: بهذا الحزم، وبأطر الناس على الحق الذي استبان وظهر: استقامت أمور أهل هذه البلاد، وشغلوا بما فيه خير دينهم ودنياهم عن كثرة التهارج والخصومات؛ فسعدوا وهنئت عيشتهم. بخلاف ما لو تساهل الملك والعلماء مع كل ناعق أو مدع للإصلاح ! فعندها ستدخل البلاد في متاهات لا يعلمها إلا الله، وسيلتبس على أهلها الحق الظاهر بالباطل الذي يثيره دعاة الفتنة .

ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ مؤكدًا على قيام ولاة الأمور بهذا الحزم مع مثيري الشغب والفساد (بأنواعه) ممن لا يرضيهم الحق الظاهر المستبين:

(فإن الحق إذا كان ظاهرًا قد عرفه المسلمون، وأراد بعض

المبتدعة أن يدعو إلى بدعته، فإنه يجب منعه من ذلك، فإذا هُجر وعُزر كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ بن عسل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه. أو قُتل كما قتل المسلمون الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما؛ كان ذلك هو المصلحة، بخلاف ما إذا تُرك داعيًا، وهو لا يقبل الحق: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه. فإنه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه وعلى المسلمين).

إلى أن قال: (والمقصود أن الحق إذا ظهر وعُرف، وكان مقصود الداعي إلى البدعة إضرار الناس؛ قوبل بالعقوبة)[(١)].

قلت: وقل مثل ذلك فيمن يريد جعل الأمر فوضى في مجال الفتاوى والأحكام؛ لا سيما في المسائل العامة التي تتعلق بالمجتمع كله.

وقال **الشيخ بكر أبوزيد** ـ سلمه الله ـ متحدثًا عن قاعدة (تغير الفتوى بتغير الزمان) التي يدندن حولها أهل الفساد للتخلص من أحكام الشرع: (وليُعلم هنا: أن هذه القاعدة مع مسألة البحث هذه «فتح باب الاجتهاد» يستغلهما فقهاء

---

(١) «درء التعارض» (٧/ ١٧٢ – ١٧٣).

المدرسة العصرانية الذين اعتلت أذواقهم، وساورتهم الأهواء، ومجاراة الأغراض؛ فهذا يشيد حججًا لإباحة الربا، وذلك لوقف تنفيذ الحدود ... وهكذا. وكلها شبه على أساس هار متداع للسقوط، وبأول معول. فيجب على من ولاه الله أمر المسلمين: معالجة هذه الأذواق الفاسدة؛ بتحجيمها، والقضاء عليها؛ لتسلم الأمة من أمراضها واعتلالها)[1].

هذا ما حصل في عهد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فكانت له العواقب الحميدة على أهل هذه البلاد.

فهل نرى مثيلا لهذا الحزم في أيامنا هذه التي تقاطر فيها علينا أصنافٌ من «الغلاة» و«محبي التفرد بالشواذ» و«الطامحين» و«مدعي الإصلاح» و«المتعصرنين» و«الليبراليين»، واشرأب فيها أهل البدع القديمة «من صوفية ورافضة» برؤسهم ؟!

مع التذكير أخيرًا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فبقدر تحقق التوحيد والطاعات يكون الأمن للعباد والبلاد، وإن نقصوا

(١) «المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل» (١ / ٨٤ – ٨٥).

نُقص من أمنهم. ولهذا مقال آخر إن شاء الله .

أسأل الله أن يوفق ولاة أمورنا وعلماءنا للأخذ على يدي كل سفيه يريد أن يخرق السفينة، وأن يصرف عنا كيد المتربصين والحاقدين. والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *

فتوى وبيان للشيخ صالح الفوزان عن الليبرالية[١]

المكرم: فضيلة الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان ـ حفظه الله ـ
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ما قول فضيلتكم في الدعوة إلى الفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية؟ وهو الفكر الذي يدعو إلى الحرية التي لا ضابط لها إلا القانون الوضعي، فيساوي بين المسلم والكافر بدعوى التعددية، ويجعل لكل فرد حريته الشخصية التي لا تخضع لقيود الشريعة كما زعموا، ويحاد بعض الأحكام الشرعية التي تناقضه؛ كالأحكام المتعلقه بالمرأه، أو بالعلاقه مع الكفار، أو بإنكار المنكر، أو أحكام الجهاد .. الخ الأحكام التي يرى فيها مناقضة لليبرالية .وهل يجوز للمسلم أن يقول:(أنا مسلم ليبرالي) ؟ ومانصيحتكم له ولأمثاله؟

الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإن المسلم هو المسلم لله بالتوحيد المنقاد له بالطاعة البريء من الشرك وأهله. فالذي يريد الحرية التي لا ضابط

---

(١) نقلا عن موقع الشيخ على شبكة الإنترنت.

لها إلا القانون الوضعي هذا متمرد على شرع الله يريد حكم الجاهلية وحكم الطاغوت، فلا يكون مسلماً، والذي ينكر ماعُلم من الدين بالضرورة من الفرق بين المسلم والكافر ويريد الحرية التي لا تخضع لقيود الشريعة وينكر الأحكام الشرعية من الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومشروعية الجهاد في سبيل الله. هذا قد ارتكب عدة نواقص من نواقص الإسلام، نسأل الله العافية.

والذي يقول: (إنه مسلم ليبرالي) متناقض؛ إذا أريد بالليبرالية ما ذُكر، فعليه أن يتوب إلى الله من هذه الأفكار؛ ليكون مسلماً حقًا .

كتبه: صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

* * *

بيان وتوضيح للفتوى السابقة[1]

قال الشيخ صالح الفوزان: «الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

فقد وردني سؤال هذا نصه مع جوابه: «السؤال عن الدعوة إلى الفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية وكونه يدعو إلى حرية لا ضابط لها إلا القانون الوضعي، ويساوي بين المسلم وغيره بدعوى التعددية، ويجعل لكل فرد حريته الشخصية التي لا تخضع لقيود الشريعة، ويحاد بعض الأحكام الشرعية التي تناقضه؛ كالأحكام المتعلقة بالمرأة أو بالعلاقة مع غير المسلمين أو بإنكار المنكر أو أحكام الجهاد، إلى آخر الأحكام التي فيها مناقضة هذه الليبرالية للإسلام، وهل يجوز للمسلم أن يقول: أنا مسلم ليبرالي؟

والجواب: إن المسلم هو المستسلم لله بالتوحيد، المنقاد له بالطاعة، البريء من الشرك وأهله.فالذي يريد الحرية التي

---

(١) جريدة الجزيرة، الثلاثاء ١١ جمادى الآخرة ١٤٢٨ .

لا ضابط لها إلا القانون الوضعي هذا متمرد على شرع الله يريد حكم الجاهلية وحكم الطاغوت؛ فلا يكون مسلماً. والذي يُنكر ما عُلم من الدين بالضرورة من الفرق بين المسلم والكافر، ويريد الحرية التي لا تخضع لقيود الشريعة، وينكر الأحكام الشرعية ومنها الأحكام الخاصة بالمرأة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومشروعية الجهاد في سبيل الله؛ هذا قد ارتكب عدة نواقض من نواقض الإسلام التي ذكرها أهل العلم. والذي يقول: (إنه مسلم ليبرالي) متناقض إذا أريد بالليبرالية ما ذُكر، فعليه أن يتوب إلى الله ليكون مسلماً حقاً».

هكذا كان الجواب وهو على سؤال محدد لم يتجاوزه. ولما نشر السائل هذا الجواب ثارت ضجةٌ من بعض الناس وصنفوا هذا الجواب على منهج من يسمونهم بالتكفيريين الذين يكفرون الناس بغير حق على طريقة الخوارج الضلال ! ونزلوه على أناس لم أقصدهم، وإنما قصدت الإجابة على السؤال فقط، لأن ما ذكر فيه هو من نواقض

الإسلام المعروفة عند أهل العلم، فأنا ـ والحمد لله ـ لم أبتدع قولاً من عندي، وأبرأ إلى الله من تكفير الأبرياء أو التكفير على غير الضوابط الشرعية. ومعلوم أن الله سبحانه علق الأحكام على هذه الأسماء: مؤمن وكافر ومنافق وفاسق وموحد ومشرك.

وأما العلماني والليبرالي وما أشبههما فهي أسماء جديدة، ولكن ليست العبرة بألفاظها وإنما العبرة بمعانيها وما تعبر عنه. فما كان منها يتضمن ما تضمنته الأسماء الشرعية المذكورة؛ فإنه يُعطي حكمه الشرعي ومنه الكفر، والكفر قد يكون بالاعتقاد أو القول أو الفعل أو الشك. كما ذكر ذلك أهل العلم في نواقض الإسلام، وفي باب حكم المرتد من كتب الفقه.

وهناك فرق بين الحكم على الأقوال والأفعال والاعتقادات بصفة عامة، فيقال: من اعتقد أو قال أو فعل كذا وكذا فهو كافر. وبين الحكم على الأشخاص، فما كل من قال أو فعل الكفر فهو كافر؛ حتى تتحقق في حقه شروط

وتنتفي موانع. فإذا كان من صدرت منه هذه المكفرات مكرهاً أو جاهلاً أو متأولاً أو مقلداً لمن ظن أنه على حق؛ فإن هؤلاء لا يُبادر بإطلاق الكفر عليهم حتى ننظر في أمرهم.

فالمكره قد عذره الله سبحانه وتعالى حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦] والجاهل والمتأول والمقلد يُبين لهم؛ فإن أصروا على ما هم عليه حُكم بكفرهم؛ لزوال عذرهم. والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤] من أظهر الإسلام ونطق بالشهادتين وَجَبَ الكف عنه؛ لأنه صار مسلماً حتى يتبين منه ما يناقض الإسلام، فحينئذ يحُكم عليه بالردة ما لم يكن له عذر من الأعذار السابق بيانها. ثم إنه لا يجوز أن يحُكم على الشخص بالكفر بمجرد الشائعات، وإنما يحُكم

عليه بإقراره هو على نفسه أو بشهادة العدول عليه بما صدر منه، بعد التأكد التام من كونه غير معذور بشيء من الأعذار السابق ذكرها. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ١٠٦] والذين يتولون إصدار الأحكام على من حصل منهم ما يخل بالعقيدة من نواقض الإسلام هم العلماء الراسخون. وليس من حق كل متعلم أو جاهل أن يتولى ذلك؛ لأن هناك فرقاً بين الحكم العام والحكم الخاص كما سبق.

ومن حكم في هذه الأمور بغير علم فهو على طريقة الخوارج الضلال الذين يُكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم، كما أخبر عنهم النبي ﷺ، نعوذ بالله من طريقتهم ونسأله أن يكف شرهم عن المسلمين. فمسألة التكفير مسألة صعبة وخطيرة، ولذا ذكرها العلماء في كتب العقائد وكتب الفقه من أجل أن تُدرس وتبين للناس، وهذا موجود ـ ولله الحمد ـ في المقررات الدراسية من أجل

أن تُشرح وتبين للطلاب حتى لا ينزلقوا مع أهل الضلال نتيجة لسوء الفهم؛ كما حصل للخوارج.

إنه لا يقي من هذا الخطر - وهو التكفير بغير علم - إلا دراسة العقيدة الصحيحة على أهل العلم المتخصصين بها. وكما أن هناك من يُكفر الناس عن جهل، فهناك طرف مقابل يرى أنه لا يكفر أحداً مهما قال أو فعل أو اعتقد، مخالفين بذلك نصوص الكتاب والسنة التي جاءت ببيان ما يكون به الإنسان مرتداً من الأقوال والأفعال والاعتقادات، وكلا الفريقين: الغلاة والجفاة يحتاجان إلى أن يدرسا العقيدة الصحيحة على أهل العلم المختصين، إما في الدراسات النظامية في المدارس والمعاهد والكليات، أو في حِلَق الذكر التي تُعقد في المساجد.

والحذر كل الحذر من التعلم على الكتب أو على المتعالمين أو المجاهيل أو في الأمكنة الخفية .وقد حذّر الله سبحانه من الردة عن الإسلام وبيّن خطرها في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥] .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولا أحد يأمن على نفسه من الردة؛ لا سيما مع كثرة الفتن كما في زماننا هذا، قال النبي ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**».

ولخطورة الفتن والردة عن الإسلام لم يأمن إبراهيم الخليل عليه السلام الردة على نفسه وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال نبينا محمد ﷺ: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت**

قلبي على دينك»، قالت له عائشة رضي الله عنها: أتخاف يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «يا عائشة وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن؟»، ولذا قال الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

اللهم ثبت قلوبنا على دينك وقنا شر الفتن، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة